وفيات الأعيان

وأنباء أبناء الزمان

لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان
(٦٠٨ - ٦٨١هـ)

حققه

الدكتور إحسان عباس

المجلد السابع

دار صادر
بيروت

وفيات الاعيان

٧

مصادر ترجمته وأخباره[1]

كمال الدين ابن الشعار (— ٦٥٤) عقود الجمان في شعراء هذا الزمان (١ : ٤٥٤) مخطوطة أسعد أفندي رقم ٢٣٢٣ .

شهاب الدين أبو شامة (— ٦٦٥) ذيل الروضتين (ط . القاهرة ١٩٤٧) .

شمس الدين ابن خلكان (— ٦٨١) وفيات الأعيان (في مواضع متفرقة).

كمال الدين أبو الفتح موسى بن أحمد ابن خلكان (— ٧١٧) : خاتمة المختار من وفيات الأعيان ، مخطوطة مكتبة وزارة شئون الهند Loth : 705 انظر مقدمة الجزء الرابع من الوفيات : ط) .

قطب الدين اليونيني (— ٧٢٦) ذيل مرآة الزمان (صفحات متفرقة في ج ١ ، ٢) (ط . حيدر آباد ١٩٥٥) .

أبو الفدا اسماعيل بن علي (— ٧٣٢) : المختصر في أخبار البشر ٤ : ١٧ (ط . القاهرة ١٣٢٥) .

---

١ ذكرت المصادر أن له ترجمة في تاريخ الحافظ قطب الدين (لعله اليونيني) وترجمة في معجم البرزالي وثالثة في تاريخ الشهاب محمود ورابعة في تاريخ الشيخ تاج الدين الفزاري؛ كذلك لم أجد له ترجمة في ابن العديم رغم اشارة المصادر إلى أنه مذكور في تاريخ ابن العديم ولم أستطع الحصول على ترجمته في تاريخ الإسلام للذهبي ، وقد وردت له ترجمة باللغة الانجليزية في أول الجزء الرابع من طبعة دي سلان ، تعتمد في الأكثر على ما جاء في وفيات الأعيان .

ابن أيبك الدواداري (بعد ٧٣٦) كنز الدرر جـ ٨ ؛ تحقيق أولرخ هارمان (ط . القاهرة ١٩٧١) .
شمس الدين الذهبي (ـ ٧٤٨) العبر في خبر من غبر ٥ : ٣٣٤ (ط. الكويت)
صلاح الدين الصفدي (ـ ٧٦٤) الوافي بالوفيات ٧ : ٣٠٨ تحقيق احسان عباس (١٩٦٩) .
ابن شاكر الكتبي (ـ ٧٦٤) فوات الوفيات ١ : ١٠٠ تحقيق محيي الدين عبد الحميد .
ابن شاكر الكتبي (ـ ٧٦٤) عيون التواريخ : مخطوطة طوبقبوسراي رقم 21 / 2922 ومخطوطة كوبريللي رقم ١١٢١ .
عبد الله بن أسعد اليافعي (ـ ٧٦٨) مرآة الجنان ٤ : ١٩٣ (ط . حيدر آباد ١٣٣٩) .
تاج الدين السبكي (ـ ٧٧١) طبقات الشافعية ٥ : ١٤ (ط . الحسينية) .
جمال الدين عبد الرحيم الاسنوي (ـ ٧٧٢) طبقات الشافعية ١ : ٤٩٦ تحقيق عبد الله الجبوري (بغداد ، ١٩٧٠) .
الحافظ ابن كثير (ـ ٧٧٤) : البداية والنهاية ١٣ : ٣٠١ (الطبعة الأولى١٩٦٦)
الزركشي (ـ ٧٩٤) : عقود الجمان ، مخطوطة الفاتح رقم : ٤٤٣٤ .
ابن العماد (ـ ٨٠٨) شذرات الذهب ٥ : ٣٧١ .
ابن قاضي شهبة (ـ ٨٥١) طبقات الشافعية : ٢١٠ (نسخة الجامعة الاميركية ببيروت) .
بدر الدين العيني (ـ ٨٥٥) عقد الجمان، مخطوطة جار الله رقم ١٥٩١ .
ابن تغري بردي (ـ ٨٧٤) المنهل الصافي (مضمنة في الجزء الأول من الترجمة الانجليزية لدي سلان) .
ابن تغري بردي (ـ ٨٧٤) النجوم الزاهرة ٧ : ٣٥٣ .
جلال الدين السيوطي (ـ ٩١١) حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ١ : ٥٥٥ تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم (القاهرة ١٩٦٨) .
عبد القادر النعيمي (ـ ٩٢٧) الدارس في تاريخ المدارس ١ : ١٩١ تحقيق

جعفر الحسني (دمشق ١٩٤٨) .
ابن طولون (ـ ٩٥٣) : رسالة إنباء الأمراء بأنباء الوزراء . مخطوطة برلين Ldg. 704
ابن طولون (ـ ٩٥٣) قضاة دمشق ص : ٧٦ تحقيق صلاح الدين المنجد (دمشق ١٩٥٦) .
ابن القاضي (ـ ١٠٢٥) درة الحجال ١ : ٧ تحقيق محمد الأحمدي أبو النور (القاهرة ١٩٧٠) .
مرتضى الزبيدي (ـ ١٢٠٥) تاج العروس (مادة : بوك ، خلك) .
الخوانساري (ـ ١٣١٣) روضات الجنات : ٨٧ (ط . ايران ١٣٦٧) .
مخطوطة برلين رقم Spr. 61 9449 (والراجح أنها نسخة من تاريخ ابن كثير) .

مقدّمة في المؤلِّف وكتابه

١ – موطنـــه

حين سمّى ابن المستوفي كتابه في تاريخ إربل : « نباهة البلد الخامل ومن ورد عليه من الأماثل » كان يعني بدقة ما يقول ، فان إربل – حيث ولد ابن خلكان – ظلت بلداً خاملاً لا يأخذ بأسباب النباهة إلا قبيل منتصف القرن السادس الهجري . وكان ابتداء نباهتها حين أصبحت ملكاً لرجل تركماني شديد القصر حتى عرف لشدة قصره بلقب كجك ، ذلك هو زين الدين علي بن بكتكين أحد رجال عماد الدين زنكي ، وقد أعطاه عماد الدين عدة مدن سوى اربل منها سنجار وحرّان وقلاع الهكارية[1] ، وكان زين الدين خيّراً عادلاً مفرط الذكاء والشجاعة ، وفياً بالوعد ، كثير السخاء والانعام ، وكان يبعث إلى البلاد التابعة له نواباً عنه ، فكان أول نائب له باربل مملوكه المعتق سرفتكين الارمني (– ٥٥٩) وقد بنى باربل وقراها مساجد كثيرة ، كما بنى مدرسة القلعة[2] . وخلفه في النيابة باربل مملوك آخر لزين الدين هو أبو منصور قايماز بن عبد الله الزيني ، وكان رجلاً عادلاً كثير الخير والصلاح بنى باربل مدرسة وخانقاه وجعل لهما أحباساً كثيرة ؛ وهكذا أخذت إربل في ظلّ هذين الحاكمين العادلين تحرز شيئاً من التقدّم والعمران .

ثم إن زين الدين تخلّى عن جميع ما كان بيده من البلاد وأعطاه لقطب الدين أتابك . ولم يستبق لنفسه سوى إربل ، وذهب إليها فتوفي فيها سنة

١ الباهر : ١٣٥ .

٢ الوفيات ٢ : ٢٣٩ ، ٢٣٧ .

٦٦٣ . وخلفه ابنه مظفر الدين كوكبوري وكان يومذاك في الرابعة عشرة من عمره ، وأتابكه مجاهد الدين قايماز ، ثم اختلف مجاهد الدين معه فنحّاه عن الولاية ونصب بدله أخاه يوسف ، وخرج كوكبوري منها ، واستقرّ بحرّان ، ثم اتصل بخدمه السلطان صلاح الدين فزوجه أخته الست ربيعة خاتون ، وكان لكوكبوري مواقف كثيرة في حروب صلاح الدين ، فلما توفي أخوه يوسف (٥٨٦) عرض كوكبوري على صلاح الدين أن ينزل عما كان بيده من البلاد (الرها وحران وسميساط) ويأخذ بدلها إربل ، فأجابه صلاح الدين إلى ذلك فعاد إليها في ذلك العام[١] .

بدأ كوكبوري يبذل جهده في إصلاح البلد ومرافقه ، فبنى في اربل أربع خانقاهات للزمنى والعميان ، وخانقاهين للصوفية ، وثلاث دور : واحدة للأرامل وثانية للأيتام وثالثة للملاقيط ، وأنشأ بيمارستاناً وداراً للضيافة ومدرسة سميت باسمه (أي المدرسة المظفرية) لفقهاء الشافعية والحنفية وداراً للحديث ، هذا إلى سخائه بتوزيع الخبز والمال على المحتاجين ، وتفقده لهذه المرافق ورعايته لمن يحلّ فيها . ثم أراد بعد هذه الاصلاحات العمرانية أن يجعل إربل قبلة للأنظار يقصدها الناس من جميع الطبقات ، فجعل مولد الرسول (ص) موسماً تمتد فيه الحفلات اثني عشر يوماً ، وقد وصف ابن خلكان طريقة احتفاله بذلك العيد وصفاً مسهباً ممتعاً لا حاجة بنا إلى إيراده في هذا المقام[٢] . وقد استطاعت هذه الجهود أن ترفع المستوى الثقافي بين أهل إربل وأن تجذب إليها العلماء والأدباء من مختلف النواحي .

كانت اربل في عهد كوكبوري قسمين : المدينة نفسها وقلعتها الحصينة ؛ وتقع المدينة في فضاء من الأرض واسع بسيط ، كما تقع القلعة في طرف منها ، وسور المدينة منقطع في نصفها . وكان في القلعة أسواق ومنازل للناس وجامع للصلاة ، وفي ربض القلعة مدينة عريضة بنى سورها وعمر أسواقها

---

١ الوفيات ٤ : ١١٤ — ١١٥ .

٢ الوفيات ٤ : ١١٧ — ١١٩ .

وقيساريتها كوكبوري ؛ ويقول ياقوت الذي نقلت عنه هذا الوصف — وقد زارها في أيام كوكبوري — إن بنيانها وطباعها بالقرى أشبه منها بالمدن ، وأكثر زروعها على القنيّ المستنبطة تحت الأرض وشربهم من آبارهم العذبة الطيبة المريئة [1] .

وقد لاحظ الذين زاروا إربل أن كوكبوري رغم سخائه الكثير وصدقاته الغامرة وأعمال البرّ التي كان يقوم بها في إربل وغيرها ، كان عسوفاً كثير المصادرات ، يأخذ الأموال من غير حق له فيها [2] ، وذلك جانب لم يحاول ابن خلكان إبرازه في ترجمة كوكبوري ، لأنه كان مأخوذاً بما أفضله هذا الحاكم على بني خلكان وبما كان بينه وبين والد المؤلف من علاقة طيبة .

وقد توفرت لاربل في عهد كوكبوري جميع الخطط والدواوين والمصالح التي تتطلبها دولة مستقلة ، من ذلك :

١ — خطة الوزارة : وليها ولي الدين أبو الثناء محمود بن محمد الحرّاني ، ثم قبض عليه كوكبوري فخلفه فيها علي بن شماس منتقلاً إليها من ديوان الانشاء ، ثم حبسه مظفر الدين ومات في حبسه سنة ٦٢٢ ، وجاء بعده ابراهيم ابن علي بن أبي حرب الموصلي ، ودام في هذا المنصب حتى سنة ٦٢٨ حين قبض عليه وعلى أولاده وسجنهم، ولم يفرج عنهم إلا بعد وفاة المعظم [3] ؛ وكان آخر من تولاّها له أبو البركات ابن المستوفي ، أوائل سنة ٦٢٩ فاستبشر الناس بيمن طلعته، ولكن عهده فيها لم يطل إذ توفي المعظم في السنة التالية .

٢ — خطة الحجابة : ومن أشهر من تولاها أحمد بن عبد السيد بن شعبان الاربلي ثم تغير عليه الملك المعظم واعتقله مدة ، فلما أفرج عنه هاجر من اربل إلى بلاد الشام سنة ٦٠٣ (أو السنة التي تليها) [4] .

---

١ معجم البلدان (إربل) .
٢ انظر عقود الجمان ٦ : ٣٤ (في ترجمة ابن المستوفي) ٩ : ١٨٦ ومعجم البلدان (إربل) .
٣ عقود الجمان ٤ : ١ .
٤ الوفيات ١ : ١٨٤ وعقود الجمان ١ : ١٧٤ .

٣ – ديوان الانشاء : عمل فيه علي بن شماس ثم ابن المستوفي ، ثم أسعد بن ابراهيم النشابي ، وقد أصبح هذا الأخير ذا أمر ونهي كبير المنزلة بسيط الجاه نافذ القول وانتهى به الحال إلى أن قبض عليه مظفر الدين (٦٢٩)[١] .

٤ – ديوان الوقوف والاستيفاء : من أشهر من تولاه أبو البركات ابن المستوفي ، ولم يكن يأخذ أجراً ومع ذلك لم يسلم من المصادرة ، فان كوكبوري اعتقله في السجن وقيده بقيد ثقيل وأخذ منه سبعة آلاف دينار مصادرة استدان بعضها ، والباقي حصله من مغلّ أملاكه[٢] .

٥ – ديوان المظالم : تولاه محمد بن الوزير محمود بن أبي الثناء وكان جريئاً مهيباً قبض عليه كوكبوري حين قبض على أبيه واخوته (توفي ٦١٢) [٣] .

٦ – ديوان الارتفاع الخاص : وليه أبو البركات هبة الله بن أبي الحسن النصراني ، وكان ماهراً في الحسبانات الديوانية والأحكام الخراجية (توفي ٦٢١) [٤] .

٧ – الاهراء والتصرّف : وليها اسحاق بن معالي بن شماس ابن أخي الوزير علي بن شماس ، ثم رفع عليه مال جليل عجز عن أدائه فاعتقله السلطان وقيده ومات في سجنه (٦١٧) [٥] وممن ولي التصرف يوسف بن ضوّ [٦] ، وعبد الله بن عمر الاربلي وكان ماهراً في صناعة التصرف والحساب والمساحة [٧].

٨ – دار الضرب : وليها عثمان بن ابراهيم الرصاصي ، وكان ينقش فيها سكك الدنانير وبقي على وظيفته حتى توفي الملك المعظم [٨] .

١ عقود الجمان ١ : ٥٢١ وله ترجمة في الجزء التاسع من الوافي .
٢ عقود الجمان ٦ : ٣٤ وما بعدها .
٣ عقود الجمان ٦ : ٣٧٤ .
٤ عقود الجمان ٩ : ٢٤٤ .
٥ عقود الجمان ١ : ٤٧٧ .
٦ عقود الجمان ١٠ : ٤٤٠ .
٧ عقود الجمان ٣ : ٣٠٥ .
٨ عقود الجمان : (ترجمة : عثمان بن ابراهيم الرصاصي)

٩ – كتابة الطغرة : تولاّها هاشم بن عبد السلام بن يوسف الاربلي ، ونال في وظيفته تمكناً ووجاهة وكثرت أمواله [١] .

١٠ – خزانة السلاح : كان يتولاها أسعد بن أحمد أبو المحاسن الاربلي[٢] .

وليست هذه الخطط والوظائف إلا نماذج لما كان عليه تنظيم الدولة في عهد كوكبوري ، ولكن مما يلفت النظر أن الذين سلموا من عقابه ، ممن عملوا معه ، كانوا قليلي العدد ، وان أكثرهم صودروا وعذبوا واعتقلوا ، فمنهم من مات في سجنه ، ومنهم من آثر الرحيل عن تلك المدينة عندما أطلق سراحه .

إلى هذه المدينة التي كان صاحبها لا يعظم أحداً تعظيمه للفقهاء والمحدثين والصوفية ، جاء الفقيه محمد بن ابراهيم بن أبي بكر بن خلكان ونزل في المدرسة المظفرية ، ووجد رعاية ومودة من مظفر الدين ، وفي تلك المدرسة ولد ابنه أحمد ، موضوع هذه الدراسة . فشهد ذلك الابن جانباً من ذلك العهد الزاهر باربل ، وهاجر منها وهي لا تزال تعجّ بطلاب العلم والعلماء والتجار وطلاب العطاء . وبعد وفاة كوكبوري (سنة ٦٣٠) استولت عليها عساكر الخليفة المستنصر[٣] ، ثم اجتاحها التتر (٦٣٤) فخربوها وقتلوا أكثر أهلها ، ولم ينج منهم إلا من لجأ إلى القلعة[٤] ، وهكذا خفت ذلك اللألاء الذي لاح فترة من الزمن ؛ وعادت المدينة إلى سابق خمولها .

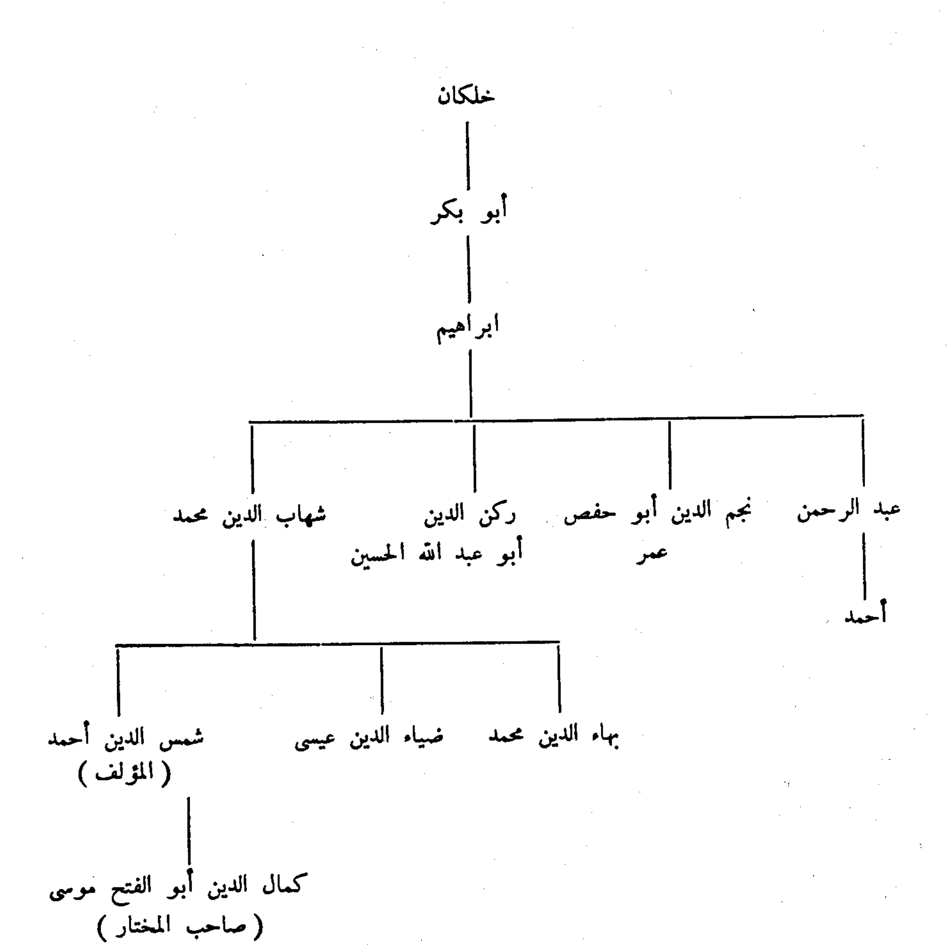
---

١ عقود الجمان ٩ : ١٨٦ .

٢ عقود الجمان ١ : ٤٩٨ .

٣ انظر التفصيل في ذلك في الحوادث الجامعة : ٤٤ – ٥٠ ، وقد تولى أمرها الأمير باتكين ، وقد نزل في دار الامارة التي كان يسكنها مظفر الدين ، وجعل المشرف فيها ابن المصطنع ، والكاتب ابن عبدان النصراني ، وعارض الجيش ابن عسكر الأنباري .

٤ الحوادث الجامعة : ٩٨ ، ١٠٩ .



خلكان
أبو بكر
ابراهيم
عبد الرحمن
نجم الدين أبو حفص
عمر
ركن الدين
أبو عبد الله الحسين
شهاب الدين محمد
أحمد
بهاء الدين محمد
ضياء الدين عيسى
شمس الدين أحمد
(المؤلف)
كمال الدين أبو الفتح موسى
(صاحب المختار)

٢ – أسرتـه

هو أحمد بن محمد بن ابراهيم بن أبي بكر بن خلكان بن باوك بن عبد الله ابن شاكل بن الحسين بن مالك بن جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك .

وقد ضبط « شاكل » في نسبه بفتح الكاف[١] ، كما ضبط « باوك » بفتح الواو[٢] ، غير أن الزبيدي قال في التاج [٣] : « وبائك جد القاضي شمس الدين ابن خلكان، ضبطه منصور بن مسلم هكذا » . وذكر الزبيدي ضبط « خلكان » بكسر الخاء وتشديد اللام المكسورة[٤] ، وقال النعيمي انه بفتح الخاء المعجمة وتشديد اللام، معتمداً في ذلك على أنه رأى الاسم مضبوطاً كذلك بخط صاحب الوفيات نفسه [٥] وهذا هو المشهور في ضبط هذه اللفظة . غير أن الخوانساري أضاف إلى الضبطين السابقين ثالثاً فزعم أن الاسم بضم الخاء وفتح اللام المشدّدة « خُلّكان » – كما أسند إلى المشهور[٦] – وقيل إن « خلكان » اسم قرية من عمل إربل [٧] ، وقد قطع ابن المستوفي الشكّ حين ذكر أن القرية انما سميت كذلك باسم جدّ الاسرة ، ونسبت إليه على طريق النسبة الكردية[٨]؛ وثمة تعليل واه لاطلاق هذا الاسم عليه – على حسب الضبط الثاني « خَلّكان » – فقد قيل « انه افتخر يوماً في مجلس كان له على بعض قرنائه بمفاخر آبائه الذين هم آل البرامكة الوزراء المشهورون فقيل له في ذلك خلّ كان ، بمعنى دع كان أبي كذا وجدي كذا ونسبي كذا وحدثنا عما يكون في نفسك الآن »[٩] ، وهو تعليل واضح الافتعال وان

---

١ ابن طولون ، ٣٥ /أ والمنهل الصافي ؛ وجاء بخط ابن المؤلف « شاكر » .
٢ ابن طولون والمنهل الصافي وهو بالواو بخط ابنه ، ووقع « بائك » خطأ في مقدمة الجزء الرابع .
٣ التاج (بوك) وانظر أيضاً (خلك) .
٤ التاج (خلك) .
٥ الدارس ١ : ١٩١ .
٦ روضات الجنات : ٨٧ .
٧ الاسنوي ١ : ٤٩٥ وخطأه ابن قاضي شهبة الورقة ٢١١، وانظر الشذرات ٥ : ٣٧٢ مع أن الاسنوي على صواب .
٨ تاريخ اربل : ٢٧٣ .
٩ روضات الجنات : ٨٧ ، ومختصر الوفيات لوجدي ابراهيم ، الورقة : ٦٤ .

كنّا لا نملك ما يوضح حقيقة هذه التسمية .

وقد أضاف صاحب روضات الجنات في نسبته لفظة « الهكاري » أي المنسوب إلى الهكارية ، وهي بلدة وناحية وقرى فوق الموصل في بلد جزيرة ابني عمر يسكنها أكراد يقال لهم الهكارية[1] ؛ وهذه نسبة لم يذكرها أحد سواه فيما أعلم ، وقد قصد بها النسبة إلى المكان ، ولكن من الثابت أنّ المؤلف اربلي المولد ، ولم تكن إربل تعد واحدة من بلدان منطقة الهكارية ، وقد ترجم المؤلف في كتابه لعدد من الهكاريين فلم يشر أدنى إشارة إلى علاقة أسرتهم بتلك المنطقة .

أما الذين قالوا إنه بلخي الأصل[2] فقد قرنوا بين انتسابه إلى البرامكة وأن مدينة بلخ هي الموطن الذي كان يعيش فيه جدهم برمك ، وكان يخدم النوبهار وهو معبد كان للمجوس بتلك المدينة[3] ؛ وقد كانت النسبة إلى البرامكة قضية لا إشكال فيها في نظر المؤلف ، ولكنها لم تكن كذلك في نظر بعض معاصريه ، إذ يقال إنه سأل مرة بعض أصحابه عما يقوله فيه أهل دمشق ، فأخبره أنهم ينسبونه إلى الكذب في نسبه ، فكان جوابه على ذلك قوله « أما النسب والكذب فيه فاذا كان ولا بدّ منه فكنت أنتسب إلى العباس أو إلى علي بن أبي طالب أو إلى أحد الصحابة ، وأما النسب إلى قوم لم يبق لهم بقية وأصلهم فرس مجوس فما فيه فائدة »[4]. وقد كانت مشكلة النسب هذه ما تزال حية لدى من ترجموا له من مؤرخي القرن الثامن كالقطب اليونيني والصلاح الصفدي وابن شاكر والزركشي ، حتى قال اليونيني : سمعت من يذكر إنما خرج له النسب إلى البرامكة أبو شامة[5] . وحاول بعض هؤلاء المؤرخين أن يقوّي من هذه النسبة بالاعتماد على ما كتبه معاصرو

---

١ ياقوت : (الهكارية) .
٢ انظر مثلا ابن طولون : ٣٥/أ .
٣ الوفيات ٦ : ٢١٩ .
٤ الصفدي ٧ : ٣١٣ وابن شاكر ، الفوات ١ : ١٠٢ والزركشي ١ : ٥٣/أ .
٥ الصفدي ٧ : ٣١٣ .

المؤلف عنه أو عن أحد من أفراد أسرته ، فالصاحب شرف الدين ابن المستوفي صاحب تاريخ اربل ترجم لابن عم المؤلف ونسبه إلى البرامكة[1] ، وهذا لا يقوّي القول بهذه النسبة وحسب بل ينفي زعم من زعم ان أبا شامة هو الذي خرّج له هذا النسب ، ذلك لأن صلة ابن خلكان بأبي شامة ربما لم يكن لها وجود قبل عام ٦٥٩ (عام توليه القضاء بدمشق) وابن المستوفي توفي سنة ٦٣٧ [2] وألف كتابه قبل وفاته بعدة أعوام . كذلك فان الصاحب كمال الدين ابن العديم ذكر المؤلف في «تاريخ حلب»[3] ونسبه إلى البرامكة[4] .

وإذا صحّ ان ابن المستوفي نسب أسرة المؤلف إلى البرامكة فمعنى ذلك أنه كان نسباً معروفاً لهم في إربل وقراها ، قبل عهد المؤلف ، ولكن لدى مراجعة القطعة المتبقية من «تاريخ اربل» نجد ترجمةً للفقيه أبي حفص عمر ابن ابراهيم بن أبي بكر ابن خلكان[5] ، ولم يرفع في نسبه أكثر مما ذكرناه هنا ، ولم يتجاوز «خلكان» في ترجمة آخر[6] ؛ ومن أقدم التراجم التي كتبها أحد معاصري المؤلف ، ترجمته في عقود الجمان لابن الشعار[7] ، وقد رفع في نسبه إلى «مالك» ولم يزد ، كما أن هذا المؤلف نفسه ترجم لخلكاني آخر وقال فيه «من أبناء الأكراد»[8] ، فقوله «من أبناء الأكراد» قد يوحي بالسبب الذي جعله يتوقف في نسب ابن خلكان صاحب الوفيات عند جده «مالك» ، ولعلّ ابن الشعار لم يغب عنه ما كان يقوله بنو خلكان

---

١ الصفدي ٧ : ٣١٣ ومعلوم أن تاريخ اربل لم يصلنا ، وكل ما لدينا فانه قطعة منه ، ولهذا لم نستطع أن نتثبت يقيناً مما قاله الصفدي .

٢ انظر الوفيات ٤ : ١٤٧ .

٣ راجعت نسخة طوبقبوسراي من بغية الطلب فلم أعثر فيه على ترجمة لابن خلكان .

٤ الصفدي ٧ : ٣١٣ .

٥ تاريخ اربل : ٢٧٣ .

٦ تاريخ اربل : ٣٢٥ .

٧ ابن الشعار ١ : ٤٥٤ .

٨ ابن الشعار ١ : ٤٤٧ .

في نسبهم فقد عاش في إربل فترة من الزمن ، وانعقدت بينه وبين صاحب الوفيات من بعد صلةٌ حين التقيا في حلب ، لهذا فان سكوته عن ذكر النسب البرمكي مسألة تستدعي التأمل . أما ذكر ابن العديم لهذه النسبة فلعله إنما كان بتأثير المؤلف نفسه ، إذ يبدو أنه كان أيضاً على صلة بابن العديم ، أو لعلها ترديدٌ لما كان شائعاً بين الناس عن هذه النسبة ، دون توقفٍ أو محاكمة ؛ أياً كان الأمر فان الشكّ في نسبته لم يعد له وجود في المصادر التي جاءت بعد القرن الثامن ؛ فقد غطت شهرة كتابه على تلك المسألة الصغيرة .

غير أن قضية الانتساب إلى البرامكة تعدّ مسألة اعتبارية محضاً ، إذ صرّح المؤلف لابنه موسى من بعد ، أن قبيلته التي ينتسب إليها من الأكراد هي القبيلة المعروفة بالزرزارية ، وجمع بين النسبة إلى الكرد والنسبة إلى البرامكة دون تردد[1] ؛ ومن المشهور أن البرامكة فارسيون ، فهل معنى ذلك أن الكرد – في رأي المؤلف – يرجعون إلى أصول فارسية ؟. والجواب على هذا السؤال يكمن في اضطراب الانساب الكردية ، وانتماء كثير من القبائل الكردية إلى أصول متباعدة لا رابطة بينها[2] . وبعدما يزيد قليلاً على نصف قرن من وفاة المؤلف كان العمري يقول في أكراد زمانه « إن الأكراد وان دخل في نوعهم كل جنس ... فانهم جنس خاص من نوع عام[3] » فاذا تحدث عن الزرزارية أعاد إلى الذهن ذلك الربط بينهم وبين الفرس فقال : « الزرزارية : هي كلمة عجمية معناها ولد الذئب ويقال انهم ممن تكرّد من العجم المنسوبين إلى ملوكهم »[4] .

وتجمع المصادر التي نوهت بذكر الأسرة تعميماً على أن بيت بني خلكان كان مشهوراً بالفقه والعلم عامة ، وربما كان تميز أفراد تلك الأسرة بالفقه

---

١ انظر مقدمة الجزء الرابع من الوفيات : ط .
٢ انظر في ذلك صفحات متفرقة في شرفنامه للبدليسي .
٣ المسالك ٢ : ٣٠٠ .
٤ المسالك ٢ : ٣٠٥ – ٣٠٦ وصبح الأعشى ٤ : ٣٧٦ .

خاصة أوضح من أي شيء آخر ، ويروي المؤلف أن جده أبا بكر ابن خلكان كان من تلامذة أبي اسحاق الشيرازي في الفقه ، وأنه أول شخص من الأسرة ذهب في هذا الاتجاه وتوفي سنة ٥٢٥ وقد ناهز التسعين من عمره [١]. ومع ذلك فإن المصادر لم تذكر شيئاً عن ما أحرزه أبناء تلك الأسرة من شهرة علمية قبل ظهور أبناء «ابراهيم بن أبي بكر» وهو الجدّ المباشر للمؤلف ؛ أي أن تلك الشهرة العلمية لا ترتفع إلى ما قبل القرن السادس الهجري ؛ على أي حال .

وقد عرفنا من أبناء ابراهيم أربعة هم : عبد الرحمن ونجم الدين أبوحفص عمر وأبو عبد الله أو أبو يحيى الحسين ركن الدين ، وشهاب الدين محمد .

أما عبد الرحمن فلم تترجم له المصادر وإنما ورد اسمه في ترجمة ابنه أحمد [٢] .

وأما الفقيه نجم الدين أبو حفص عمر بن ابراهيم بن أبي بكر بن خلكان فانه كان مدرساً بالمدرسة المجاهدية باربل ، وكان مظفر الدين صاحب اربل ينفذه إلى مكة لتوزيع الصدقات ، والانفاق على قنوات أنشأها هنالك تحت جبل عرفات ليشرب منها الحجاج ، وغير ذلك من أمور البرّ ؛ ومن أساتذته ابن أبي الضيف التميمي ، وله اجازة من أبي أحمد عبد الوهاب بن علي وأبي الفرج ابن كليب الحراني وابن أبي الكرم البغدادي ، توفي باربل سنة ٦٠٩ ودفن بمقبرتها العامة [٣] .

وأما الحسين بن ابراهيم بن أبي بكر بن خلكان [٤] فكان فقيهاً عالماً عارفاً

١ مقدمة الجزء الرابع : ط .

٢ ابن الشعار ١ : ٤٤٧ أحمد بن عبد الرحمن بن ابراهيم بن أبي بكر بن خلكان بن باوك ابن عبد الله بن شاكل ، الاربلي الأصل ، من أبناء الأكراد ، ومن بيت فقه وعلم، شاب قصير يتزيا بزي الأجناد . أخبرني أنه ولد بالجزيرة العمرية يوم الخميس آخر النهار ثالث عشر ذي الحجة سنة تسع وتسعين وخمسمائة ، ولم يكن عنده ما عند أهله من الفقه (ثم أورد له نموذجين من شعره) .

٣ تاريخ اربل : ٢٧٣ وانظر الاسنوي ١ : ٤٩٥ والسبكي ٥ : ١٣٠ .

٤ تاريخ اربل : ٣٢٥ والاسنوي ١ : ٤٩٥ وذكر أن وفاته كانت سنة ٦٢٣ .

بمذهب الشافعي كثير تلاوة القرآن ، له سمت حسن ووقار ، سمع من يحيى ابن محمود بن سعد المكي كتاب الحجة في بيان المحجة ؛ وكتاب « شرح مذهب السلف » جمع أبي القاسم اسماعيل بن محمد بن الفضل ، وكان به مرض بقي عدة سنين ثم برأ منه ، وتوفي باربل سنة ٦٢٢ ودفن بالمقبرة العامة شرقي البلد .

ورابع الاخوة شهاب الدين محمد هو والد أحمد الذي عرف من بعد بكتابه وفيات الأعيان ؛ ولد محمد في حدود سنة ٥٥٧ ورحل في طلب الحديث إلى الشام ومصر والحجاز والعراق ، وتفقه بالموصل ، وكان من أساتذته فيها عماد الدين ابن يونس بن منعة ، قرأ عليه — فيما قرأ — كتاب الوسيط للغزالي ، ويذكر حفيده موسى أنه رأى نسخة من هذا الكتاب عند والده أحمد وعليها خط ابن منعة بأن (شهاب الدين) قرأه عليه قراءة اتقان ومعرفة [١] وتفقه أيضاً ببغداد على ابن فضلان وعيّن معيداً بالمدرسة النظامية بعد مدة من تعيين ابن منعة في ذلك المنصب ، ثم عاد إلى الموصل وأقام فيها أربع عشرة سنة ، وفي خلال تجوّله في الطلب والاشتغال بالعلم كوّن صداقات كثيرة ، فكان من أصدقائه ابن الأثير المؤرخ وأخوه ضياء الدين وبهاء الدين المعروف بابن شدّاد وغيرهم ، وقد كانت هذه الصداقات مفيدة لابنائه من بعد وخاصة لابنه أحمد . وبعد الاقامة الطويلة بالموصل انتقل إلى إربل وأحرز مكانة عند صاحبها مظفر الدين كوكبوري وصار مشاراً إليه في الفتوى ومدرساً بالمدرسة المظفرية ، وفيها أدركته وفاته في ٢٢ شعبان سنة ٦١٠ هـ [٢] .

وقد تزوج شهاب الدين امرأة من الموصل تدعى آمنة كان أبوها شيخاً للطائفة الحنفية بالموصل ولقبه شمس الدين [٣] ، وهي ترجع في نسبها إلى خلف بن أيوب صاحب الإمام أبي حنيفة [٤] . وقد رزق شهاب الدين من

١ الوفيات ج ٤ : الحاشية رقم : ١
٢ الاسنوي ١ : ٤٩٦ .
٣ مقدمة الجزء الرابع : ط ، وقد ترك موسى بياضاً بعد لفظة شمس الدين لذكر الاسم .
٤ مقدمة الجزء الرابع : ط والمنهل الصافي ؛ وخلف بن ايوب بلخي أيضاً ، قيل انه توفي سنة ٢١٥ وقيل سنة ٢٢٠ (انظر الجواهر المضية ١ : ٢٣١ — ٢٣٢) .

زوجته آمنة ثلاثة أولاد [1] وهم : محمد الملقب ببهاء الدين ، وعيسى ضياء الدين ، وأحمد شمس الدين .

أما محمد فقد ولد سنة ٦٠٣ وتوفي في ١٤ رجب سنة ٦٨٣ ببعلبك وهو يتولى قضاءها ، ودفن بتربة الشيخ الكبير عبد الله اليونيني [2] .

وقد ذكر المؤلف أخاه ضياء الدين عيسى في معرض حديثه عن الحاجري الشاعر ، وذكر أنه كانت بين الاثنين صداقة متينة ، ومن إشارته هذا عرفنا أيضاً أن ضياء الدين كان ما يزال باربل سنة ٦١٩ [3] . ويشير المؤلف أيضاً إلى أنّ أحد هذين الأخوين كان قد سبقه إلى الهجرة من اربل ونزل حلب ، ليدرس فيها على علمائها ، ومنهم بهاء الدين المعروف بابن شداد [4] ، ولكنه لم يبين أي الأخوين يعني ، ومن العسير الترجيح في ذلك .

٣ ــ سيرة حياتــه

وكان أحمد أصغر الاخوة الثلاثة ــ على الأرجح ــ إذ أنه ولد بالمدرسة المظفرية التي كان أبوه يدرس فيها ــ بمدينة اربل ــ يوم الخميس بعد صلاة العصر حادي عشر شهر ربيع الآخر سنة ٦٠٨ [5] ولم يكن قد أكمل السنة الثانية من عمره حين فقد أباه ، ولكن ذلك الوالد كان حريصاً على أن يتجه ابنه في الطريق العلمية ، ولذلك استدعى له الاجازات من العلماء المشهورين في عصره ــ حسبما كان العرف جارياً يومئذ ــ فنال الطفل اجازة من زينب بنت الشعري كتبتها في بعض شهور سنة ٦١٠ [6] ، وكانت هي قد تلقت العلم عن جماعة من أعيان العلماء رواية واجازة ، ومنهم عبد الغافر الفارسي

١ هؤلاء هم الذين ورد لهم ذكر في المصادر .
٢ عيون التواريخ (الورقة : ١٢٩) حوادث سنة ٦٨٣ ، نسخة طوبقبوسراي .
٣ الوفيات ٣ : ٥٠٢ .
٤ الوفيات ٧ : ٩٠ .
٥ الوفيات ٢ : ٣٤٤ مقدمة الجزء الرابع : ط وفيها « وقت أذان العصر » والمنهل الصافي .
٦ الوفيات ٢ : ٣٤٤ .

صاحب السياق والزمخشري ، وغيرهما ، فكان لأحمد من بعد حقّ الرواية لما روته عن أولئك الأعلام أو أجازوه لها . واستدعى له والده أيضاً اجازة أخرى من أبي الحسن المؤيد بن محمد رضي الدين النيسابوري فكتب إليه بالاجازة من خراسان في جمادى الآخرة سنة ٦١٠ أيضاً [١] .

ولقد كان من السهل أن تختلّ كل تلك الترتيبات التي اتخذها الوالد ، إذ يترك أولاداً صغاراً عاجزين لا عن متابعة العلم وحسب ، بل عن السعي في طلب الرزق ، لولا تلك الصداقة المتينة التي كانت تربط بين شهاب الدين وكوكبوري صاحب إربل ، فقد تولى رعاية أبناء صديقه بعد وفاته ، وإلى هذه الرعاية أشار المؤلف — من بعد — بقوله في ترجمة مظفر الدين : « وليعذر الواقف على هذه الترجمة ففيها تطويل ، ولم يكن سببه إلا ما له علينا من الحقوق التي لا نقدر على القيام بشكر بعضها ولو عملنا مهما عملناه ، وشكر المنعم واجب ، فجزاه الله أحسن الجزاء ، فكم له علينا من الأيادي ولاسلافه على أسلافنا من الأنعام ، والإنسان صنيعة الاحسان » [٢] . ولهذا استطاع أحمد أن ينصرف إلى طلب العلم في إربل ، وكان أحمد بن كمال الدين بن منعة قد خلف والده شهاب الدين في التدريس بالمظفرية سنة ٦١٠ (وصل إليها في أوائل شوال من ذلك العام) ، وكان شرف الدين ابن منعة من أوائل الأساتذة الذين تلقى أحمد العلم منهم ، إذ كان يحضر دروسه وهو صغير ، فما سمع أحداً يلقي الدروس مثله ، وكان لهذا الاستاذ أثر بالغ في نفس ذلك الفتى حينئذ ، ولشدة تأثره به قال : « ولقد كان من محاسن الوجود ، وما أذكره إلا وتصغر الدنيا في عينيّ » [٣] ؛ ومع ذلك فانه لم ينس أن هذا الأستاذ العظيم في نفسه استعار من أسرته (بني خلكان) كتاب التنبيه ليشرحه ، فوجد على حواشي النسخة التي استعارها تعليقات كثيرة بخط الشيخ رضي

١ الوفيات ٥ : ٣٤٥ .
٢ الوفيات ٤ : ١٢٠ .
٣ الوفيات ١ : ١٠٩ .

الدين الجيلي الشافعي : فلم يتورع عن نقل تلك الحواشي وإدراجها في شرحه واضافتها إلى نفسه [1] .

وكان أكبر مجال ثقافي لأحمد بمدينة اربل – بعد المدرسة المظفرية – هو مجلس أبي البركات شرف الدين ابن المستوفي الذي لم يكن يدع أحداً من الفضلاء يصل اربل إلا ويبادر إلى اكرامه ، ولهذا كان منزله مألفاً لجميع الغرباء الذين يقصدون تلك المدينة . وقد شهد ياقوت بذلك حين قال وهو أحد من قصدها – « ودخلتها فلم أر فيها من ينسب إلى فضل غير أبي البركات المبارك بن أحمد بن المبارك بن موهوب بن غنيمة بن غالب ، يعرف بابن المستوفي ، فانه متحقق بالأدب ، محب لأهله مفضل عليهم ... » [2] ووصفه ابن الشعار أحد من امتاحوا فضله بقوله : « شمس إربل وبدرها وعالمها البارع وصدرها وفخر أماثلها وجمال فضائلها ... ربعه مقصد الوافدين وخباؤه كعبة القاصدين . فهو من إسداء المعروف وسعة الانفاق ما سارت به الأمثال في أقطار الآفاق ... ولم يزل في منزله ملازماً مطالعة الكتب والنسخ والتأليف إلى أن هجم التتار الملاعين على اربل » [3] ، فلا عجب إذا اتخذ أحمد دار ابن المستوفي محجته لطلب العلم ، فسمع منه كثيراً ، وسمع بسماعه على المشايخ الواردين على تلك المدينة ، فانه كان يعتمد القراءة بنفسه [4] ولم ينس وهو في حدود الحادية عشرة من عمره (٦١٨) حادثة الاعتداء على ذلك الرجل العالم ، ووثوب شخص عليه وطعنه بسكين قاصداً قتله [5] .

وقد اختزنت ذاكرته من تلك الفترة باربل ذكريات مختلفة . منها حادثة رجلٍ حضر سماعاً قبل سنة ٦٢٠ والمغني فيه الشجاع بن جبريل ، فغنى الشجاع قصيدة لسبط ابن التعاويذي مطلعها :

---

١ الوفيات ١ : ١٠٩ .
٢ معجم البلدان : (اربل) .
٣ عقود الجمان ٦ : ٣٥ – ٣٧ .
٤ الوفيات ٤ : ١٤٧ .
٥ المصدر السابق : ١٤٩ .

سقاك سار من الوسمي هتـان ولا رقت للغوادي فيك أجفان

وكيف أن أحد الحاضرين وقع عندما سمع الغناء ، فظنه الناس مغمىً عليه ، وإذا هو قد فارق الحياة [1] ، وتلك كانت بداية تعرفه إلى شعر سبط ابن التعاويذي الذي أصبح فيما بعد نموذجاً للشعر الرائع في نظره ، وكذلك ظلّ يذكر ما كان يردده الناس من أن ابن عم لابن المستوفي نقل كتاب « نصيحة الملوك » للغزالي من الفارسية إلى العربية [2] ؛ وربما كان اهتمامه بذلك لأهمية المؤلف من ناحية وجلالة ما أقدم عليه المترجم من ناحية أخرى . وهو يحدثنا أنه سمع في بعض شهور سنة ٦٢١ صحيح البخاري على أبي جعفر محمد بن هبة الله بن المكرم الصوفي البغدادي بحق سماعه من أبي الوقت السجزي [3] فابن المكرم الصوفي على هذا الاعتبار واحد من أساتذته في هذا الدور المبكر ، ولكنه يذكر أن ابن المكرم توفي في شهر المحرم من تلك السنة (أي في أوائل العام المذكور) ولعلّه سها هنا عن تدوين التاريخ بدقة ، وربما كان سماعه منه في شهور السنة السابقة (٦٢٠) . وفي سنة ٦٢٣ ورد ابن عنين الشاعر الدمشقي إلى مدينة اربل رسولاً من الملك المعظم شرف الدين عيسى صاحب دمشق ، ورآه أحمد ، ولكنه لم يأخذ عنه شيئاً ، وربما كان سبب ذلك قصر المدة التي قضاها ابن عنين بتلك المدينة [4] ؛ وكان أحمد في هذه الأثناء كثير الترداد من اربل إلى الموصل ، حتى انه زار هذه المدينة الثانية أكثر من عشر مرات ، وكان نصر الله ابن الأثير مقيماً بالموصل ، وكان أحمد يعرف ما بينه وبين والده من صداقة ويحب لو يتاح له الاجتماع به في بعض سفراته ليأخذ عنه ، ولكن التوفيق لم يحالفه في ذلك [5] ولعله حمد — في سره — ما قدّرته الظروف ، إذ لا ريب أنه كان يسمع عن ما يتمتع به ضياء الدين من خيلاء شديدة ، تحول دون أن يلقاه فتىً ناشىء ولو كان من أبناء أصدقائه .

١ الوفيات ١ : ٣١٧ — ٣١٨ .

٢ الوفيات ٤ : ١٥١ .

٣ الوفيات ٣ : ٢٢٦ .

٤ الوفيات ٥ : ١٥ .

٥ الوفيات ٥ : ٣٩١ .

وكان أحمد في تعطشه إلى العلم – في هذه الفترة الاربلية – لا يستطيع أن يعتمد كثيراً على ما تهيئه اربل وبيئتها المحلية من فرص ، ولذلك كان أكبر همه أن يلقى الوافدين إليها ويأخذ عنهم ، وقد أتيح له أن يلقى الشيخ جمال الدين ابن السنينيرة الشاعر ، فانه نزل عندهم بالمدرسة المظفرية ، وكان مجلسه مجمعاً لمحبي الأدب ، حيث تجري بينهم محاضرات ومذاكرات لطيفة[1] ، كان من أثرها أن قوّت الميل إلى الاتجاه الأدبي لدى الفتى أحمد ؛ وكان من الوافدين على اربل عام ٦٢٥ (واستمرّ في العام الذي يليه) الشيخ أثير الدين المفضل بن عمر الابهري صاحب التعليقة في الخلاف والزيج ، قادماً إليها من الموصل ، فنزل بدار الحديث ، فانتهز أحمد هذه الفرصة ، وأخذ يدرس عليه الخلاف . وذات يوم كان في حضرة أستاذه إذ دخل عليه بعض فقهاء بغداد ، وأخذا يتحدثان في شئون مختلفة ، ووصل الحديث بهما إلى كمال الدين ابن يونس فقال الأثير لمحدثه : لما حج الشيخ كمال الدين ودخل بغداد كنت هناك ؟ فقال نعم ، فقال : كيف كان اقبال الديوان العزيز عليه ؟ فقال ذلك الفقيه : ما أنصفوه على قدر استحقاقه ؛ فأبدى الأثير تعجبه من ذلك وقال : والله ما دخل إلى بغداد مثل الشيخ ، ودهش الفتى ابن خلكان لهذا القول وظن أستاذه يغالي في الثناء على كمال الدين فقال له : يا سيدنا كيف تقول هذا ؟ فأجابه أستاذه مطمئناً بقوله : يا ولدي ، ما دخل إلى بغداد مثل أبي حامد الغزالي ووالله ما بينه وبين الشيخ (كمال الدين) نسبة[2] .

وكان من أبرز الوافدين إلى اربل أبو الخطاب ابن دحية ، ولما رأى هذا المحدث الأندلسي اهتمام مظفر الدين كوكبوري بالاحتفالات التي تقام كل عام بمناسبة المولد النبوي ، ألف له كتاباً سمّاه « التنوير في مولد السراج المنير » ؛ وقد سرّ مظفر الدين بالكتاب ، وأخذ يقرؤه على الناس ؛ ليرووه عنه . وقد قرأه ابن خلكان على مظفر الدين في شهر شعبان سنة ٦٢٦ [3] .

---

١ الوفيات ١ : ٢١٥ .

٢ الوفيات ٥ : ٣١٣ .

٣ الوفيات ١ : ٢١١ – ٢١٢ .

ولكن لا نظن أن ابن خلكان أكن احتراماً كبيراً لابن دحية ، فقد كان في آخر كتابه قصيدة مطلعها :

لولا الوشاة وهمُ أعداؤنا ما وهموا

وقد « أوهم » ابن دحية أهل اربل أنها من نظمه ، ولكن حين اتسع اطلاع الفتى ابن خلكان وجدها في ديوان الأسعد ابن مماتي ، فصحّ لديه ما كان ينسب لابن دحية من الكذب ، وان كان تحرجه المتأدب يمنعه من التصريح السافر بذلك[1] .

كان أحمد قد تجاوز الثامنة عشرة بقليل حين عقد النية على أن يغادر اربل طلباً للعلم ، ولم يكن يقدّر وهو يرتحل عنها أنه لن يعود إليها من بعد ، وكان أحد أخويه في صحبته في تلك الرحلة ؛ وكان اعتماده — بعد التعاون المشترك بينه وبين أخيه في مواجهة ظروف الحياة — على شيئين : كتب توصية حملاها من صديق الأسرة ، حاكم اربل ، مظفر الدين كوكبوري ، ووفرة أصدقاء والدهما في المدن التي سيحلان فيها ؛ وتلقتهما الموصل ، وأخذ أحمد يتردد إلى خدمة كمال الدين موسى بن يونس بن منعة لما كان بينه وبين والده من المؤانسة والمودة الأكيدة[2] ، وقد تردد إليه عدة مرات في شهر رمضان سنة ٦٢٦ ، بينما سبقه أخوه في طريقه إلى حلب ، ولكنه لم يستطع أن يتتلمذ عليه ، رغم إعجابه الشديد به ، إذ كانت حلب لا الموصل حينئذ هي مطمح أنظاره ، ولكنه أضمر في نفسه انه إن قدّر له أن يتزوج وأن يرزق ولداً ، فانه سيسمي ذلك الولد « موسى » ، تيمناً باسم ذلك الأستاذ العظيم ، ذي المكانة الكبيرة في نفسه[3] . ورغم أن إقامته في الموصل لم تطل فانه اجتمع فيها إلى بعض الأدباء ، ويدلّ تسجيله لبعض ما سمعه منهم في

---

١ الوفيات ١ : ٢١١ — ٢١٢ وقد تعقبه من بعد على نحو مباشر لأنه أخطأ فعد الوزير يحيى بن هبيرة من نسل الوالي الأموي عمر بن هبيرة « ومثل ابن دحية لا يعذر فقد كان حافظاً ومطلعاً على أمور الناس » (٦ : ٢٤٣) .

٢ الوفيات ٥ : ٣١١ .

٣ الوفيات ٥ : ٣١٧ .

تلك الرحلة السريعة على شغفه – في دور مبكر – بتقييد كلّ ما يعتقد فيه فائدة علمية [1] ، وواصل سفره إلى حلب فمرّ في طريقه إليها بمدينة حرّان (في شوال سنة ٦٢٦) وكان الملك الكامل الأيوبي هنالك ومعه العساكر المصرية وهو يكشف أحوال المدينة ويرتب أمورها [2]؛ وفي مستهل ذي القعدة من ذلك العام (٦٢٦) دخل مدينة حلب [3] ، ومنذ حلوله في تلك المدينة تبدأ أخصب فترة في حياته من حيث تلقي العلم على الشيوخ المشهورين ، فقد كانت حلب بفضل القاضي بهاء الدين ابن شداد تشهد نشاطاً تعليمياً كبيراً ، ذلك أن هذا القاضي الذي كان صديقاً لصلاح الدين ، كان قد أصبح منذ سنة ٥٩١ قاضياً ومستشاراً للملك الظاهر ابن صلاح الدين ، فبدأ بفتح المدارس وتحبيس الوقوف عليها ، فعمر مدرسة قبالة المدرسة النورية (٦٠١) وبنى داراً للحديث ، وأصبحت المدينة بفضل جهوده مقصداً للفقهاء وطلاب العلم الذين كانوا يجدون المأوى والنفقة الجارية [4] .

وكان من حسن حظ أحمد وأخيه أن كان ابن شداد صديقاً لوالدهما منذ عهد الاشتغال بمدينة الموصل ، وكانا يحملان إليه كتاب توصية من كوكبوري جاء فيه « أنت تعلم ما يلزم من أمر هذين الولدين ، وأنهما ولدا أخي وولدا أخيك ، ولا حاجة مع هذا إلى تأكيد وصية » [5] . ورعاية لحق الصداقة ومكانة الموصي ، تلقاهما ابن شداد بكل ترحيب وأنزلهما في مدرسته ، وقرّر لكل منهما مرتباً عالياً يساوي مرتب الطلبة الكبار ، رغم حداثة سنيهما .

ولم يكن ابن شداد يقوم بمهمة التدريس في ذلك الوقت لكبر سنه ، وإنما كان قد رتب في مدرسته أربعة معيدين يشتغل الطلاب عليهم . فبدأ أحمد وأخوه يقرءان على بلديّهما ورفيق والدهما أيضاً الشيخ جمال الدين أبي بكر

١ انظر مثلا الوفيات ٧ : ٩٨ ، ٤ : ١٦١ .
٢ الوفيات ٥ : ٨١ ، ٣٣٢ .
٣ الوفيات ٦ : ١٣٩ ، ٧ : ٤٨ .
٤ الوفيات ٧ : ٨٩ – ٩٠ .
٥ الوفيات ٧ : ٩٠ .

الماهاني ، ولكن هذا الشيخ توفي بعد سنة من اقامتهما بحلب ، فأخذ أحمد يتردد إلى الشيخ أبي عبد الله ابن الخباز الموصلي الفقيه ، وهو إذ ذاك يدرّس بالمدرسة السيفية ، فقرأ عليه كتاب « الوجيز » للغزالي وبلغ فيه حتى « باب الاقرار »[1] ، وبالجملة قرأ عليه صدراً صالحاً من فقه الامام الشافعي وتميز فيما قرأ عليه[2] .

وفي أثناء ذلك كان ابن شداد يعقد مجالس الحديث في داره ، وخاصة تلك المجالس التي كان يعقدها عقب صلاة الجمعة ، وكان رجلاً حسن المحاضرة ، تجري في مجالسه الفوائد الكثيرة ، إلا أن الكبر كان قد أوهنه بحيث أصبح « كفرخ الطائر من الضعف » وأخذ جسمه يعجز عن تحمل البرد ، فكان دائماً يجعل في غرفته منقلاً كبيراً تؤجج فيه النار ، وقد تدثر بالثياب الثقيلة ، والطلاب من حوله في كرب وضيق لشدة الحرّ[3] ؛ وإذا كان أحمد لم يدرك ابن شداد في السن التي يمكنه فيها أن يفيد منه فائدة كبيرة ، فانه أفاد كثيراً من مجلسه الحافل بشتى أنواع الفوائد ، وفي ذلك المجلس تعرّف إلى عدد كبير من علماء المدينة وأدبائها ، وتعرف إلى عدد آخر من طلاب العلم ، وانعقدت بينه وبين بعضهم صداقات متينة .

وكان الأساتذة المذكورون قادرين على تخريج الطلاب في علوم الفقه والحديث ، ولكن حرص ابن خلكان على دراسة اللغة والنحو جعله يتجه إلى أستاذ آخر ، كان يعد في عصره شيخ الجماعة في الأدب ؛ وذلك هو موفق الدين ابن يعيش ، وكان يقرىء بعد العصر بجامع حلب في المقصورة الشمالية منه ، وبين الصلاتين بالمدرسة الرواحية ، وكان قد التف حوله جماعة من الطلبة المتميزين لا يفارقون دروسه ، فأخذ أحمد في القراءة عليه ، وابتدأ بكتاب اللمع لابن جني ، أواخر سنة ٦٢٧ ، ولكنه أكمل الكتاب على غيره لأسباب اقتضت ذلك . وفي الوقت نفسه كان يستمع لدروس من يحضر

١ المصدر السابق .
٢ عقود الجمان ١ : ٤٥٥ .
٣ الوفيات ٧ : ٩١ .

عنده ، وقد أعجبته في ذلك الأستاذ خفة روحه ، وصبره الطويل في التفهيم ، للمبتدئين والمنتهين على السواء ، وسجل من نوادره وظرفه صوراً حية عندما ترجم له [1] .

ومنذ أن حلّ ابن خلكان مدينة حلب ، جعل همّه أن يلقى المؤرخ عز الدين ابن الأثير ، وكان حينئذ يقيم في تلك المدينة في صورة الضيف عند الطواشي شهاب الدين طغريل الخادم أتابك الملك العزيز صاحب حلب ، وجعل يتردد إليه طوال إقامته في تلك المدينة ، وابن الأثير يرعاه رعاية خاصة ، لعلاقة وثيقة كانت بينه وبين والده ، وانقطع تردده إليه حين سافر ابن الأثير إلى دمشق سنة ٦٢٨ ، فلما عاد إليها ، عاد ابن خلكان يلازمه غير أنه لم يقم طويلاً وسافر إلى الموصل [2] ، ومن هذه العلاقة على قصرها نجده يتحدث عن ابن الأثير بكثير من الاجلال ، ويعده أحد شيوخه . كذلك فانه يعد عبد اللطيف موفق الدين البغدادي من شيوخه ، ولا بد أن نفترض أنه لقيه بحلب ، إذ نزلها عبد اللطيف في أواخر رمضان سنة ٦٢٦ — أي قبل مقدم ابن خلكان بقليل ، وأقام بها مدة والناس يشتغلون عليه ، وشهاب الدين طغريل الأتابك يرعى جانبه ، وكان يتردد إلى جامع حلب ويسمع الحديث ويقرىء العربية [3] .

وكان هناك أستاذ آخر يعقد حلقة التدريس بجامع حلب في المقصورة الشرقية المشرفة على صحن الجامع قبالة المقصورة التي يصلي فيها قضاة حلب يوم الجمعة ، ذلك هو الأستاذ ابن الجبراني ، وكان استاذاً متضلعاً من علم اللغة ، ولكن ابن خلكان لم يدرس عليه وإنما اتيح له أن يتسقط بعض حديثه وهو جالسٌ في قبالة تلك المقصورة ، إلا أنه صادف من بعد عودته من دمشق أحد تلامذة الجبراني وهو أبو المحاسن الشواء ؛ أقول : بعد عودته من دمشق،

---

١ ترجمته في ج ٧ : ٤٦ وانظر بخاصة : ٤٨ .
٢ الوفيات ٣ : ٣٤٩ .
٣ ابن أبي أصيبعة ٢ : ٢٠٧ — ٢٠٨ وانظر الوفيات ٦ : ٧٦ حيث يقول المؤلف عند ذكر عبد اللطيف « شيخنا » .

لأن فتر دراسته في حلب لم تستمر مطردة ، بل ارتحل منها ، وربما كان لوفاة ابن شداد (١٤ صفر ٦٣٢) أثر مباشر في ازماعه الانتقال منها . وتوجه إلى دمشق ، فأقام فيها عاماً كاملاً ، دخلها في شوال سنة ٦٣٢ للاستغال على الشيخ ابن الصلاح ، أحد فضلاء عصره في التفسير والحديث والفقه ، وكان يدرس بالمدرسة الرواحية ودار الحديث بدمشق ومدرسة ست الشام ، ويقوم بوظائف الجهات الثلاث من غير اخلال بشيء منها [1] . ولا يحدثنا ابن خلكان عن المواد التي درسها على ابن الصلاح ، وان كنا نستطيع أن نقدر أن الحديث كان أهمها ، إلا أنه يقرّ بأنه كان أحد أشياخه الذين انتفع بهم .

وقد اتيح لابن خلكان أن يرى الملك الكامل والملك الأشرف في دمشق (٦٣٣) وهما يركبان معاً ويلعبان معاً بالكرة في الميدان الأخضر الكبير في شهر رمضان من ذلك العام ، ويرى تأدب كلّ واحد منهما مع الآخر [2] ، ولعله في هذه الفترة رفع قصيدة إلى الملك الكامل يمدحه بها ، ومطلعها :

هوىً بين أحناء الضلوع مخامر ... وفرط غرام أضمرته السرائر

وفيها يقول في مدحه :

لقد خذل الباغين منصور جيشه ... ولكنه للدين في الله ناصر
فردّ وجوه الروم سوداً ببيضه ... فعاد بأحزاب الصغار الأكابر
وفي سمره حمر المنايا فمن سُطا ... ثعالبها تخشى الليوثُ الخوادر

وليست هذه أولى محاولاته الشعرية ، بل كان كثيراً ما يجرب قريحته بنظم الشعر ، مثلما كان يعوّد ذاكرته – إلى جانب دراسة الأصول الفقهية وغيرها – حفظ الأشعار الرقيقة [3] . وقد لقي وهو بدمشق عدداً من طلاب العلم والعلماء ، كان من بينهم رجل فاضل في علوم الرياضة أشكلت عليه

---

١ الوفيات ٣ : ٢٤٣ ، ٢٤٤ .
٢ الوفيات ٥ : ٣٣٣ .
٣ عقود الجمان ١ : ٤٥٥ .

بعض المسائل الرياضية فكتب جميعها في درج وأرسلها إلى ابن منعة بالموصل ليحلّها له، فأجابه بجواب غاية في التواضع بعد أن حلها جميعاً ، مما جعل الرجل يقول لابن خلكان « ما سمعت مثل هذا الكلام إلا للأوائل المتقنين لهذه العلوم ، ما هذا من كلام أبناء هذا الزمان » [1] . ومن أولئك محمود الحصيري الذي اجتمع به عده مرات ، إذ كان يدرس بالمدرسة النورية بدمشق ، وكان من أبرز فقهاء الحنفية ، ومن أشد الناس ذكاءً ، ولكنه لم يذكر أنه أخذ عنه شيئاً من العلم [2] .

وبعد اكتمال عام قضاه في دمشق ، عاد إلى مدينة حلب يجدد العهد بالمدرسة البهائية القاضوية (نسبة للقاضي بهاء الدين ابن شداد) ويلقى رفاق الطلب ، ومنهم عون الدين ابن العجمي الحلبي [3] ، ومنهم صديقه كمال الدين ابن الشعار الذي كانت فاتته فرصة لقائه باربل . فقد التقى به بحلب، وأنشده شيئاً من شعره ، وكان فيما أنشده القصيدة التي قالها بدمشق في مدح الكامل، وكان انشاده لها في جمادى الآخرة من سنة ٦٣٤ [4] ؛ ومنذ أواخر العام السابق انعقدت أواصر الصداقة بينه وبين أبي المحاسن الشوّاء ، أحد المتحققين بعلم العروض والقوافي ، وكان يعجبه أن يسمع شعره وأكثره مقطوعات يتلاعب فيها بالمصطلحات النحوية واللغوية ، ويقيد منها ما يسمع ، وقد بقيا صديقين إلى أن توفي الشوّاء (١٩ محرم سنة ٦٣٥) [5] .

وأكبر الظن أنه تعرّف بحلب لا بغيرها إلى الشاعر الماجن المدعو شيطان الشام واسمه أبو العز يوسف بن النفيس الاربلي ، فهو يدعوه « صاحبنا » [6] ؛

---

١ الوفيات ٥ : ٣١٥ .
٢ الوفيات ٤ : ٢٥٩ .
٣ الوفيات ٦ : ٢٥١ .
٤ عقود الجمان ١ : ٤٥٦ .
٥ الوفيات ٧ : ٢٣٦ .
٦ الوفيات ٤ : ١٥١ .

وكان شيطان الشام يسلك في الشعر طريقة ابن حجاج وينظم الزكالش العامية ، وقد رحل إلى البلاد من إربل وامتدح الملوك ، ثم أقام في كنف بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل [1] .

لقد عرف ابن خلكان كثيراً من شئون مدينة حلب وضواحيها ، وأحداثها، ومعالمها البارزة ، وتوفي الملك العزيز محمد ابن الملك الظاهر وهو فيها (سنة ٦٣٤) فنظم في رثائه قصيدة مطلعها :

هوى من نظام الملك واسطة العقـد ولم يك من صرف المنية من بدّ [2]

وكثيراً ما كان يعود بذاكرته — وهو يؤلف كتابه — إلى ما رأى وسمع ، من ذلك مثلا وقفته عند مقتل السهروردي فانه قد تصدّى لتلك الحادثة بقوله: « وقد أقمت بحلب سنين للاشتغال بالعلم الشريف ، ورأيت أهلها مختلفين في أمره ، وكل واحد يتكلم على قدر هواه ، فمنهم من ينسبه إلى الزندقة والالحاد ، ومنهم من يعتقد فيه الصلاح وأنه من أهل الكرامات ... » [3] ؛ وكان لقاؤه للناس لا يقل فائدة عما أفاده في مجالس الشيوخ ،إذ كان قلمه سريعاً إلى التقييد، وحسبنا أن نعلم أن ما رواه من شعر ابن باجه إنما أخذه عن بعض شيوخ المغاربة [4] .

وبعد أن أقام في ديار الشام ما يقرب من عشر سنوات أزمع الرحلة إلى مصر. متى رحل ولماذا؟ لقد أثبت المؤلف بخطه نفسه في ترجمة شيخه ابن شداد أنه غادر حلب في الثالث والعشرين من جمادى الآخرة سنة ٦٣٥ [5] ، ولكنه في موضع آخر من كتابه يقول انه سافر إلى الديار المصرية سنة ٦٣٦ [6] ،

---

١ عقود الجمان ١٠ : ٥٢٥ وما بعدها .
٢ عقود الجمان ١ : ٤٥٩ .
٣ الوفيات ٦ : ٢٧٣ .
٤ الوفيات ٤ : ٤٣٠ .
٥ الوفيات ٧ : ١٠٠ .
٦ وقع في ٥ : ٣١٧ في سنة ثلاث وثلاثين وستمائة ،وصوابه في سنة ست وثلاثين .

والظاهر أن المؤلف تجوّز في هذا الموضع وجعل التاريخ تقريبياً ، أو أنه تجوّل قليلاً في جنوب الشام وأنه وصل الديار المصرية في أوائل سنة ٦٣٦ . أما ارتحاله من حلب فربما كانت وراءه أسباب عدة منها : يأسه من العودة إلى إربل بعد إذ اجتاحها التتر وخربوها سنة ٦٣٤ ؛ ومنها — فيما أقدّر — عدم الاطمئنان إلى الأوضاع السياسية في ديار الشام ، بعد إذ أصبحت مهددة بالغزو التتريّ ، وعدم نجاح ابن خلكان في الاتجاه الشعري والاتصال بملوك آل أيوب ، ولعل أهمها ارتياد دار جديدة من دور العلم ، فانه كان ما يزال يرى نفسه في دور الطلب ، فلعلّ مصر أن تكون هي البيئة العلمية التي توفر له أعلاماً آخرين من الأساتذة ، بعدما تتلمذ على أشهر الأساتذة في ديار الشام . ومع ذلك فاننا لا نجد له شيخاً متميزاً في مصر سوى عبد العظيم المنذري ، صاحب التكملة[1] ؛ صحيح ان إقامته بمصر جمعته بتلامذة ابن فيره الشاطبي[2] وأنه لقي كثيراً من أصحاب ابن بري وأخذ عنهم رواية وإجازة[3] كما لقي أصحاب الخشوعي وسمع عليهم وأجازوه ، ولقي ابن الخشوعي واجازه جميع مسموعاته واجازاته من أبيه[4] وتعرف إلى ابن الحاجب من بعد وألقى عليه بعض الأسئلة وأفاد من علمه[5] ؛ ولكن الصداقات التي كوّنها مع جماعة من الأدباء بمصر ، كانت أقوى بكثير من العلاقات التي ربطته بالشيوخ . هل وجد ابن خلكان أن ما طلبه من العلم في ديار الشام قد كان زاداً كافياً له في الديار المصرية ؟ أتراه كان ما يزال يعتقد أنه سيكون ابن خلكان « الأديب الشاعر » لا الفقيه ابن العائلة التي لم يمكنها أصلها الكردي من اجادة مرموقة في البلاغة العربية ؟ أم أن أعباء الحياة ربطته — في دور مبكر — بالوظيفة ، فانصرف إليها عن الطلب المنظم ولقاء الشيوخ ؟ أسئلة

١ انظر مقدمة المحقق لهذا الكتاب .
٢ الوفيات ٤ : ٧٢ .
٣ الوفيات ٣ : ١٠٩ .
٤ الوفيات ١ : ٢٧٠ .
٥ الوفيات ٣ : ٢٥٠ .

ليس من المهم أن نجيب عنها بيقين قاطع ، إذ من ذا الذي يستطيع أن يقطع بالحسم في مثل هذه الشئون ؟

اتجه ابن خلكان إلى الاسكندرية ، وقضى في تلك المدينة خمسة أشهر (من عام ٦٣٦) [١] ، وفيها لقي أحد الحساب فشرح له قضية الشطرنج إذا ضوعف العدد في كل بيت[٢] منه .وبدلاً من أن يلقى الأساتذة الأحياء أخذ يلقى الأموات منهم في منامات عجيبة ، فرأى المبرد وحاكمه على خطأ وقع فيه في شعر أبي نواس في كتابه « الروضة » [٣] . والحقيقة أن منامات ابن خلكان — سواء هذا الذي رآه في الاسكندرية أو المنام الذي رأى فيه أبا علي الفارسي [٤] أو ذلك الذي رأى فيه ابن عنين بعد سنوات (٦٤٩)[٥]— تلفت الانتباه بوضوحها وحدّتها ودلالتها على انشغال نفسه بالقضايا اللغوية والأدبية .

وفي ٢٧ ذي القعدة سنة ٦٣٧ نجد ابن خلكان في القاهرة حين وصل إليها الملك الصالح ومعه الملك الناصر صاحب الكرك [٦] ، ونراه لا يستشرف إلى شيء استشرافه إلى لقاء بهاء الدين زهير ، وقد استطاع أن يحقق هذه الأمنية في أواخر ذلك العام (٦٣٧) ، وكان ذلك اللقاء فاتحة صداقة امتدت حتّى وفاة البهاء (٦٥٦) ؛ وكان إعجاب ابن خلكان بشعره أحد العوامل التي قوّت تلك الصداقة ، وأجازه البهاء رواية ديوانه [٧] . ويجب أن نذكر أن البهاء كان ذا مقام مرموق في الدولة الايوبية، وان ابن خلكان الذي لم يعد له سند من مستقرّ أو مرتب جار كان بحاجة إلى من يصله بذوي السلطان . وجرّت صداقته للبهاء إلى صداقة أخرى مع ابن مطروح ، فقد كان البهاء

---

١ الوفيات ٤ : ٣١٨ .
٢ الوفيات ٤ : ٣٥٨ .
٣ الوفيات ٤ : ٣١٨ .
٤ الوفيات ٢ : ٨١ .
٥ الوفيات ٥ : ١٨ .
٦ الوفيات ٥ : ٨٥ .
٧ الوفيات ٢ : ٣٣٢ ، ٣٣٦ .

وابن مطروح كالأخوين ، ولكن ابن مطروح كان في خدمة الملك الصالح ، ولم يرجع إلى مصر إلا في سنة ٦٣٩ وظلّ فيها حتى سنة ٦٤٣ ، وفي هذه الفترة تأكدت الصلة بين ابن مطروح وابن خلكان ، وكانا يكثران اللقاء ، وكان ابن مطروح ينشده شعره حتى انه أنشده أكثر ديوانه ، وبعد سنة ٦٤٧ انقطع ابن مطروح في داره، فكان ابن خلكان يجتمع به في كل وقت. وقبل هذا الانقطاع (٦٤٣ – ٦٤٧) كانت المكاتبات تجري بينهما باستمرار. ومرة تأخر ابن خلكان عن زيارة صديقه وهو يشكو ألماً في عينيه انتهى به إلى مقاربة العمى ، فكتب إليه ابن مطروح :

يا من إذا استوحش طرفي له لم يخل قلبي منه من أنس
والطرف والقلب على ما هما عليه ، مأوى البدر والشمس [1]

ولم تقف هذه العلاقات الأدبية عند البها زهير وابن مطروح ، بل تجاوزتهما إلى آخرين ممن كانوا بمصر وفي مقدمتهم ابن الخيمي [2] وأبو الحسين الجزار [3] .

ولعلّ ثلاثة عوامل عملت في ايجاد منصب لابن خلكان، أولها وأهمها : شخصيته المحببة وعلمه ، وثانيهما صداقته لاثنين من كبار المسئولين في الدولة وهما البها زهير وابن مطروح ، وثالثهما النسب الزرزاري الذي كان يجمع بينه وبين قاضي القضاة بمصر : بدر الدين السنجاري المعروف بقاضي سنجار (–٦٦٣) [4] . فولّي نيابة القضاء بمصر ، ولا ندري متى تولى هذا المنصب ، ولكنا نجده يحتله سنة ٦٤٥ [5] حين يحكي قصة صاحبه جمال الدين بن عبد الاربلي وقد جاءه في مجلس الحكم العزيز بالقاهرة المحروسة ، والناس يزدحمون لكثرة اشغالهم حينئذ ، وكيف فقد ابن عبد مداسه، وشكا إلى النائب ابن خلكان ما جرى له في أبيات شعرية . ولم يكن « مجلس

---

١ الوفيات ٦ : ٢٦٠ ، ٢٦٢ ، وفي الشمس اشارة إلى لقب ابن خلكان « شمس الدين » .
٢ الوفيات ٢ : ١٠٦ ، ٣٤٢ .
٣ الوفيات ٦ : ٢٦٥ .
٤ الوفيات ٦ : ٢٦٢ ، ٢٦٦ .
٥ الوفيات ٢ : ٩٨ – ٩٩ .

الحكم العزيز » قاصراً على استماع الشكاوى والفصل في القضايا ، فكثيراً ما كان معرضاً لشئون أخرى : فهو يسأل ابن الحاجب عن بعض شئون النحو حين يحضر لأداء الشهادة ، وأحياناً يجتمع عنده بعض الأدباء والشعراء فيتحول المجلس إلى مطارحات أو انشادات ؛ دخل عليه مرة فخر الدين الشاطبي ، وهو ينوب في الحكم بالقاهرة ، فأنشده فخر الدين قصيدة منها :

وإذا الرقيب درى بـه فلأنه   أخفى لديه من النسيم وألطفُ

فانتقده القاضي لأنه بالغ في وصف نحول المحب وقال له : يا شيخ فخر الدين ، لطفته لطفته إلى أن عاد لا شي ، فالتفت فخر الدين إلى جارٍ له وقال بلهجته الأندلسية : القاضي حمار ما له دوك شي (أي ماله ذوق)[1] .

وفي بعض التعليقات أنه ولي قضاء المحلة ، مترقياً إلى تلك الوظيفة من النيابة عن قاضي سنجار ، ولكن ليس ثمة في المصادر التي حصلتها ما يؤيد هذه الرواية[2] . وفي سنة ٦٤٩ فقد صديقه ابن مطروح الذي دفن بسفح المقطم وحضر الصلاة عليه ودفنه[3] . وفي القاهرة تمّ لابن خلكان التأهل « بعد تقلب الأحوال » ورزق بابن سمّاه موسى — حسبما كان قد أوقع الله في نفسه حين أعجب بالشيخ موسى ابن منعة — وكان مولد موسى وقت طلوع الشمس حادي عشر صفر سنة ٦٥١ بالقاهرة[4] ، وهو يقول ان موسى

---

١ الفوات ٢ : ٣٢٢ .

٢ أشار إليها دي سلان في الوفيات (مقدمة الترجمة الانجليزية) .

٣ الوفيات ٦ : ٢٦٦ .

٤ انظر الوفيات ٥ : ٣١٧ ؛ وكان عمر موسى تسع سنوات حين انتقل أبوه قاضياً إلى دمشق وأخذه معه ، وقد كان ذا ذكاء ، واتجه نحو الاشتغال بالعلم ، فأجاز له السبط وسمع من النجيب وحدث ، وفي سنة ٦٧٧ نراه يحضر الدرس بالمدرسة الظاهرية ، وكان مدرس الشافعية رشيد الدين اسماعيل المعروف بالفارقي أحد أصحاب والده ، وقرأ عليه مختصراً في علم البيان للرماني وآخر في العلم المذكور للقيرواني ، وأجازه صدر الدين سليمان الحنفي مدرس الحنفية بمصنفاته ومسموعاته وكذلك أجازه مجد الدين ابن الصاحب كمال الدين ابن العديم . وقد درس بالمدرسة النجيبية في حياة أبيه وبعد وفاته وولي الدواوين الحكمية ، ونراه سنة ٧٠٢ في بعلبك ثم ينتقل إلى دمشق حيث توفي سنة ٧١٧ .ويقال انه لم يكن حسن=

ولده « الأكبر » مما يدل على أنه رزق أولاداً آخرين ولكنا لا نعرف شيئاً عنهم ؛ ومن اشارة لابن المؤلف نعلم أن والده كان يقطن حينئذ بحارة الباطلية بخط الجامع الأزهر [1] .

وتحتجب عنا أخباره بعد ذلك بضع سنوات ، حتى ٢٤ شوال سنة ٦٥٦ عندما عمّ القاهرة مرض لم يكد يسلم منه أحد ؛ ولم يكن هذا المرض قاصراً على القاهرة ، فانه كان أيضاً قد انتشر في ديار الشام ومات بسببه خلق كثير [2] ؛ وبسببه لزم ابن خلكان الفراش . وبعد حوالي عشرة أيام من بدء انتشاره وصلته الأخبار بأنه فقد صديقاً من أقرب أصدقائه إلى نفسه وهو البها زهير ، فلما أبلّ من مرضه مضى إلى تربته وقرأ عنده شيئاً من القرآن الكريم وترحم عليه [3] ؛ وفي العام نفسه ، بل وفي اليوم الذي قضى البها زهير فيه نحبه ، توفي شخص آخر ، كان يحظى من ابن خلكان بكل تقدير واحترام وذلك هو شيخه عبد العظيم المنذري . وقبل انتشار المرض ، ومن بعد انزياح ظله ، كان ابن خلكان قد أخذ يشغل نفسه بتأليف كتاب في التراجم ، وهو ما سأتحدث عنه في موضع آخر .

وجاء الانتصار في عين جالوت ، ثم مقتل قطز ، بطل تلك المعركة ، محققاً الفرصة لتولي الظاهر بيبرس الحكم ؛ وبمجيئه يدخل ابن خلكان في دور جديد ، إذ وقع عليه اختيار الظاهر ليكون قاضياً للقضاة في ديار الشام ، ولا بد من أن يكون ابن خلكان النائب قد لفت إليه انتباه رجال الدولة بكفايته ومزاياه حتى يرشح لمثل هذا المنصب ؛ كان القاضي بالشام هو نجم

= السيرة وأنه كان ذا تأثير على أبيه ؛ وكنيته أبو الفتح ، ولقبه كمال الدين (الدرر الكامنة ٥ : ١٤٣ والوفيات ٤ : ١٥٧ الحاشية) .

١ الوفيات ٤ : ٢٥٨ (الحاشية) وانظر الخطط ٢ : ٨ حيث يقول ان حارة الباطلية احترقت سنة ٦٦٣ ؛ وفي هذا التاريخ كان ابن خلكان بدمشق، وهذا يعني شيئين: أنه فقد داره إن كان له ثمة دار يمتلكها ، وأنه حين عاد إلى القاهرة بعد عزله وجد لنفسه مسكناً جديداً في حارة أخرى .

٢ السلوك ١ / ٢ : ٤١٠ .

٣ الوفيات ٢ : ٣٣٨ .

الدين ابن السني ، وقد تحدث الناس فيه بأمور بلغت الظاهر ، فقرر أن يعزله ، واستشار الأمير جمال الدين ايدغدي العزيزي في من يوليه مكانه ، فأشار عليه بابن خلكان [1] . وصدر الأمر إلى ابن خلكان بأن يتأهب للسفر في صحبة الملك الظاهر ، فطوى أوراقه وجمع مسوّداته ، وخرج في « الركاب العالي المولوي السلطاني المجاهدي المرابطي » من القاهرة يوم الاحد ٧ شوال سنة ٦٥٩ ، ووصل الركب دمشق يوم الاثنين ٧ ذي القعدة ، أي أن المسافة استغرقته شهراً كاملاً [2] . وفي يوم الخميس ٨ ذي الحجة (بعد الاستقرار بدمشق شهراً آخر) عزل النجم ابن سني الدولة عن القضاء ، وتولى القضاء ابن خلكان ، وأمر النجم بالسفر إلى الديار المصرية وكان حاكماً جائراً فاجراً ظالماً متعدياً فاستراح منه العباد والبلاد [3] ؛ وفي يوم الجمعة بعده قرىء بالشباك الكمالي بجامع دمشق تقليد القضاء لابن خلكان « ويتضمن أنه فوض إليه الحكم في جميع بلاد الشام من العريش إلى سلمية ، يستنيب فيها من يريده وفوض إليه النظر في أوقاف الجامع والمصالح والبيمارستان والمدارس وغيرها مما كان تحت يد الحاكم المعزول ، وفوض إليه تدريس سبع مدارس كانت تحت يد المعزول وهي : العذراوية والعادلية والناصرية والفلكية والركنية والاقبالية والبهنسية » [4] ، وكان أبو شامة ممن حضر قراءة هذا التقليد .

وبدأ ابن خلكان بممارسة هذه المهامّ الكثيرة من تعيين نواب له في البلاد [5] ، وضبط لما تحت يده من أوقاف ، وتنصيب معيدين في المدارس ، ومراجعة للأحكام وفصل في القضايا ، ولم ينس ما يفرضه عليه منصبه الجديد

١ ذيل مرآة الزمان ٢ : ١٢٤ .

٢ الوفيات ٧ : ٢٥٧ ؛ وقد وقع في المنهل الصافي خطأ في تاريخ توليه القضاء إذ كتب ٦٦٦ .

٣ ذيل الروضتين : ٢١٤ وعقد الجمان الورقة : ١٣٤ والنقل فيه عن أبي شامة وعن تاريخ النويري .

٤ ذيل الروضتين : ٢١٥ وعقد الجمان (نقلا عن أبي شامة) : ١٣٤ وابن كثير ١٣ : ٢٣٩ ومخطوطة برلين 9449 Spr. 61 والدارس ١ : ١٩٢ ، وانظر الحديث عن هذه المدارس في الكتاب الأخير في صفحات متفرقة .

٥ نعرف من نوابه على القضاء علي بن محمود الشهرزوري الكردي (الدارس ١ : ٤٤١) وقد توفي سنة ٦٧٥ .

من تعرّف إلى العلماء والأعيان ، وإنشاء علاقات ودية في بيئة ما تزال جديدة عليه . وكان من أولى المحاولات التي قام بها ، زيارته للعز الاربلي ، أحد أبناء بلده ، واسمه الحسن بن محمد بن أحمد بن نجا الغنوي ، وشعر بالحرج من هذه الزيارة ، فان العزّ كان ما يزال يعدّه ذلك الفتى الناشىء الذي لم يحزز تقدماً في العلم والمعرفة ، بينا كان ابن خلكان ، قاضي قضاة الديار الشامية ، يرى نفسه في غير تلك المرآة ، ولهذا كانت هي الزيارة الوحيدة ، ولم يعد بعدها للقائه إباء وصوناً للنفس عما يخدشها [1] .

ولم يكن من الممكن لابن خلكان أن يقوم بالتدريس في جميع المدارس التي وكل أمرها إليه ، فنزل عن بعضها لبعض العلماء ، واعتمد في بعضها الآخر على المعيدين ؛ وأول مدرسة تخلى عنها هي الركنية الملاصقة للفلكية ، فقد نزل عنها لأبي شامة ، وفي ١٢ محرم ٦٦٠ ابتدأ أبو شامة بذكر الدرس فيها من مختصر المزني ، وكان ابن خلكان من المستمعين إلى درسه [2] . ويبدو أن العلاقة بين أبي شامة وقاضي القضاة ظلت طيبة ، وأن قاضي القضاة استطاع أن يكسب ثقة المؤرخ ، ولذلك نجد أبا شامة يلجأ إليه في شرح حادثة الكمال خضر ابن أبي بكر الكردي بمصر ، وهي حادثة أدت إلى شنقه [3] ، كما أنه لم يحاول أن يغمز منه في تاريخه على عادته في حال الآخرين . كذلك عيّن ابن خلكان بدر الدين المراغي المعروف بالطويل شارح طريقة العميدي معيداً عنده في المدرسة العادلية السيفية ، وكفل له الاقامة بها ، ولكن مدته فيها لم تطل إذ توفي سنة ٦٦٠ [4] وفيه يقول أبو شامة : « وكان قليل الدين تاركاً

---

١ ذيل مرآة الزمان ٢ : ١٦٥ ؛ وقد توفي العز الاربلي سنة ٦٦٠ (ذيل الروضتين : ٢١٦).

٢ ذيل الروضتين : ٢١٦ ، وعقد الجمان ، الورقة : ١٣٧ وابن كثير ١٣ : ٢٣٥ ومخطوطة برلين المذكورة والركنية نسبة إلى ركن الدين منكورس (انظر الدارس ١ : ٢٥٣).

٣ ذيل الروضتين : ٢١٧ – ٢١٨ وخلاصة الحادثة أن الشهرزورية التفت على المذكور ، وحاولت مبايعة خليفة من بني العباس كان مع خضر في السجن ، ثم توفي العباسي وخرج خضر من السجن فسعى لاتمام الأمر لابنه .

٤ الوفيات ٤ : ٢٥٧ – ٢٥٨ (الحاشية) .

للصلاة مغتبطاً بما كان فيه من معرفة الجدل والخلاف على اصطلاح المتأخرين »[1]. وجعل محيي الديوان النواوي نائباً عنه في المدرسة الناصرية فظلّ في وظيفته حتى سنة ٦٦٩[2] .

ويهمنا من أحداث سنة ٦٦٠ حادثتان تتصلان اتصالاً جانبياً بابن خلكان : أولاهما : عودة العساكر المصرية مع ما صحبها من عسكر الشام من غزوة إلى انطاكية ، ودخولهم دمشق في شعبان من ذلك العام[3] واحضارهم — مما صادوه — أذن حمار وحش عرضوها على ابن خلكان فقرأ عليها رسم « بهرام » واستمدّ من ذلك فكرته — التي ربما كانت ممعنة في الخطأ — عن أن عمر حمار الوحش قد يبلغ مقدار ثمانمائة سنة[4] . والحادثة الثانية هي وصول العسكر المصري مرة أخرى من مصر في ذي القعدة وعلى مقدمتة عز الدين الدمياطي ، وقبضهم على نائب السلطنة بدمشق الحاج علاء الدين طيبرس الوزيري ، لأنه كان عسوفاً يمكن البدو من شراء الغلال فترتفع أسعارها محلياً ، ويخوّف الناس بهجوم التتر . فيهربون من مواطنهم ، وتولية الأمير جمال الدين أقوش المعروف بالنجيبي[5] الذي أسس مدرسة عرفت بالنجيبية لصق المدرسة النورية ، ووقف عليها أوقافاً دارة ، وسيكون لهذه المدرسة علاقة بابن خلكان في مرحلة تالية .

وفي السنة التالية (٦٦١) كان الظاهر في الكرك ، لأنه علم أنّ صاحبها المغيث عمر بن العادل أبي بكر بن الكامل كان يراسل هولاكو ويحثه على القدوم إلى دمشق مرة أخرى ، وقد أفتى الفقهاء بقتله ، واستدعى الظاهر ابن خلكان وعرض عليه تلك الفتاوى[6] .

---

١ ذيل الروضتين : ٢١٧ .
٢ الدارس ١ : ١٦١ .
٣ ذيل الروضتين : ٢١٩ .
٤ الوفيات ٦ : ٣٥٤ — ٣٥٥ .
٥ ذيل الروضتين : ٢٢٠ — ٢٢١ ؛ وقد توفي النجيبي سنة ٦٧٧ وكان كثير الصدقة محباً للعلماء (ابن كثير ١٣ : ٢٨١ والدارس ١ : ٤٦٨) .
٦ ابن كثير ١٣ : ٢٣٨ ومخطوطة برلين .

وخلا منصب التدريس بدار الحديث في أواخر جمادى الآخرة (٦٦٢) اذ توفي المدرس بها جمال الدين ابن الحرستاني ، وصلّى عليه قاضي القضاة بجامع دمشق ، ثم عين أبو شامة خلفاً له ، وحين بدأ بذكر الدرس فيها من تصنيفه خطبة كتاب المبعث ، والحديث والكلام على سنده وفنّه ، كان إبن خلكان أحد حضور ذلك الدرس[١] .

وفي سنة ٦٦٣ كانت احدى غزوات الظاهر الكثيرة ضد قلاع الصليبيين في بلاد الشام ، وقد وجه همّه في ذلك العام للاستيلاء على قيسارية،فاستولى عليها في جمادى الأولى ، ثم استولى على أرسوف في رجب ، وكانت القاعدة المتبعة إرسال كتب البشائر إثر كل فتح ، وقد ورد عليه كتاب البشارة بفتح أرسوف من إنشاء فتح الدين عبد الله بن القيسراني مفتتحه كالآتي : « جدد الله البشائر الواردة على المجلس السامي القضائي وسرّه بما أسمعه ، وأبطل ببركته كيد العدوّ ودفعه ، وجاء بها سبب الخير وجمعه ، ولا زالت التهاني إليه واردة ، والمسرّات عليه وافدة ، ونعم الله وبركاته لديه متزايدة » ثم وصف للفتح ، وتوجيه لابن خلكان كي يحدث بهذا النصر الفقهاء والعدول ، ويكاتب نوابه بخبره ، وينشره بين الناس ، ويدعو للملك باطراد النصر[٢] .

وبعد الانتصار في أرسوف استدعى الملك الظاهر قاضي القضاة وجماعة العدول ووكيل بيت المال وجماعة من الفقهاء والأئمة ، لكي يشهدوا تمليك الأمراء ما وزعه عليهم من الاقطاعات ؛ وحضر ابن خلكان إلى غزة وكتب مكتوباً خاصاً بالتمليك ، وهذا بعض نصه ليكون فيه دلالة على أسلوب ابن خلكان الانشائي : « أما بعد ... فان خير النعمة نعمة وردت بعد الياس ، وجاءت بعد توحشها وهي حسنة الايناس ، وأقبلت على فترة من تخاذل الملوك وتهاون الناس ، وقرعت أبواب الجهاد وقد غلقت في الوجوه ، وأنطقت ألسنة المنابر وشفاه المحابر بالبشائر التي ما اعتقد أحد أن بها تفوه ، فأكرم بها نعمة على الإسلام وصلت للملة المحمدية أسباباً ، وفتحت للفتوحات أبواباً ،

١ ذيل الروضتين : ٢٢٩ وابن كثير ١٣ : ٢٤٢ والدارس ١ : ٢٣ .
٢ ذيل مرآة الزمان ٢ : ٣١٩ — ٣٢٠ .

وهزمت من التتار والفرنج العدوين ، ورابطت من الملح الأجاج والعذب الفرات بالبرين والبحرين ... » وهي رسالة طويلة ، لا يختلف أسلوبها المسجوع عما درج عليه كتاب ذلك العصر . وبعد أن قرىء هذا الكتاب على السلطان ، كتب أيضاً كتاب التمليك الشرعي لكل أمير ، وفرقت النسخ على الأمراء ، وأحسن الظاهر إلى ابن خلكان وخلع عليه[1] .

وأجرى الملك الظاهر في هذه السنة بعد عودته إلى القاهرة أول تغيير جذري في نظام قضاء القضاة . فقد كان قاضي القضاة بمصر – كما كان في ديار الشام حتى ذي الحجة من هذا العام – شافعي المذهب ، وصادف أن كان صاحب هذا المنصب بمصر وهو ابن بنت الأعز يتوقف كثيراً في أمور تخالف مذهب الشافعيّ ، فأصدر الملك الظاهر أمراً بتعيين ثلاثة قضاة آخرين مستقلين في الحكم ، يمثلون المذاهب السنية الثلاثة الأخرى[2] ؛ ولكن هذا القرار لم يجر تنفيذه في ديار الشام إلا في السنة التالية(٦٦٤). ففي شهر جمادى منها وصل المرسوم الشريف الظاهري بأن يكون في دمشق أربعة قضاة ، ووصلت ثلاثة تقاليد لشمس الدين محمد بن عطاء الحنفي والزين عبد السلام الزواوي المالكي وشمس الدين عبد الرحمن بن الشيخ أبي عمر الحنبلي ، ولكل واحد منهم الحق في تعيين نائب أو عدد من النواب ، فأبى المالكي أن يقبل ، ووافق الحنبلي إلا أنه اعتذر بالعجز ، وقبل الحنفي ، إذ كان في حقيقة الحال نائباً لابن خلكان . غير أن الظاهر عاد يؤكد على المالكي والحنبلي بضرورة القبول ، وإلا انتزع ما بأيديهما من الأوقاف ، فأجابا ، وفي اليوم التالي أشهد المالكي على نفسه بأنه عزل نفسه عن القضاء والأوقاف ، وتجدد الأمر بالزامه ، فقبل أخيراً إلا أنه ظلّ هو والحنبلي ممتنعين من أخذ

---

١ كنز الدرر ٨ : ١٠٨ – ١١٤ .

٢ ابن كثير ١٣ : ٢٤٥ وذيل مرآة الزمان ٢ : ٣٢٤ وهو يعلل ذلك بأن ابن بنت الأعز توقف في تنفيذ الأحكام وكثرت الشكاوى منه ، وكان جمال الدين ايدغدي يكرهه ، فأشار باستحداث ثلاثة مناصب أخرى ، وهذا ايدغدي هو الذي أشار من قبل بتولية ابن خلكان .

الجامكية (أي المرتب) وقالا : نحن في كفاية ، فأعفيا منها [1] .

وهكذا اجتمع في دمشق على القضاء « ثلاثة » شموس : شمس الدين عبد الرحمن الحنبلي وشمس الدين محمد بن عطاء الحنفي وشمس الدين ابن خلكان ، وحدث أن عين ابن خلكان له نائباً لقبه شمس الدين أيضاً ، فأثار ذلك بعض الظرفاء إلى التهكم من كثرة تلك الشموس ، بينما يعيش الناس في ظلام :

أهل دمشق استرابوا　　من كثرة الحكام
إذ هم جميعاً شموسٌ　　وحالهم في ظلام

وقيل غير ذلك أيضاً [2] ؛ ويبدو أن روح الفكاهة هنا قد جارت على الحقيقة ، على الأقل بالنسبة إلى ابن خلكان ، فلم يذكر أحدٌ أنه كان سبباً في ظلم أو ظلام طوال توليه القضاء بدمشق . ولا ندري كيف استقبل ابن خلكان هذا التنظيم الجديد الذي قلّص من ظلال وظيفته وأنقص من أطرافها كثيراً ، ولعله ارتاح إلى الوضع الجديد الذي كفل له إزاحة مسئوليات كثيرة كانت تثقل كاهله ، وتجعل نشاطه موزعاً في مجالات مختلفة .

وفي عام ٦٦٤ حقق الظاهر انتصارات كثيرة وخاصة أخذه لصفد، فوصل إلى ابن خلكان كتاب من إنشاء كمال الدين أحمد بن العجمي يتحدث عن تلك الانتصارات : وستتوالى هذه الانتصارات سنة ٦٦٦ ثم سنة ٦٦٩ وفي كل مرة كان ابن خلكان يتلقى كتاب بشارة بما تمّ من إنجازات [3] ، الغرض

---

١ ذيل الروضتين: ٢٣٥ — ٢٣٦ وعقد الجمان (نقلا عنه) : ١٤٩ وابن كثير ١٣: ٢٤٦ ومخطوطة برلين المذكورة والدارس ٢ : ١١ (نقلا عن ابن كثير) : والمنهل الصافي ، والصفدي ٧ : ٣٠٩ .
٢ ذيل الروضتين : ٢٣٦ وانظر الصفدي ٧ : ٣٠٩ .
٣ ذيل مرآة الزمان ٢ : ٣٣٨ ، ٣٤٣ ؛ ٣٧٥ بعد أخذ يافا والرسالة من انشاء القاضي محيي الدين ابن عبد الظاهر ؛ ٣٧٧ على أثر فتح الشقيف من انشاء ابن العجمي ؛ ٣٨٢ إثر فتح انطاكية من انشاء ابن عبد الظاهر ، وهذه كلها سنة ٦٦٦ ؛ أما أحداث ٦٦٩ فهي الاستيلاء على حصن الأكراد ٢ : ٤٤٥ وحصن عكار ٢ : ٤٤٨ .

منه تعميم النبأ بين الناس .

ومن الصعب أن نحصر نواحي النشاط الذي كان يقوم به ابن خلكان أثناء هذه الفترة الشامية التي امتدت عشر سنوات كاملة : ولكن لا ريب في أن منصبه قد وصله بفئات متنوعة من الناس ، فيهم العالم والأديب وفيهم – إلى جانب النواب والعدول – كثير من أبناء الفئات الشعبية . وكان حس المؤرخ لديه يدفعه إلى توثيق علاقته باناس يستطيع أن يجد لديهم الأخبار والتجارب ، وذلك كان شأنه منذ أن كان نائباً في القضاء بالقاهرة ، فهؤلاء كانوا يمثلون لديه مصادره السماعية أو الشفوية . فمن معارفه من هذا القبيل محاسن بن الصوري (– ٦٦٣) عريف سوق الكتب بالقاهرة (ولا ريب في أن ابن خلكان كان ذا علاقة وثيقة بالوراقين ودلالي الكتب) ؛ ولقد لقيه مرة في الايوان الكبير بدار الوزارة عند البادرائي رسول الديوان فأخبره أنه دخل تلك الدار (دار الوزارة) في أيام شاور ورأى شاور جالساً في صدر ذلك الايوان[1] . وفي دمشق كان ابن خلكان يقبل على مجلس ابن اسفنديار الواعظ (– ٦٧٦) وكان يحكي له الحكاية ثم يعيدها فيتمنى ابن خلكان أن لا يفرغ من حكايته وتنميقه[2] . وكان كثيراً ما يجلس إلى أكبر تجار دمشق الوجيه ابن سويد التكريتي (– ٦٣٠) ويستمع إلى أقاصيصه – فقد كان من المعمرين – ؛ وقد بلغ من منزلة الوجيه هذا أن متاجره لم يكن يتعرض لها متعرض وان كتبه كانت نافذة عند ملوك الأطراف وملوك الفرنج بالساحل، وكان أثيراً لدى الملك الظاهر ، كما كان كثير المكارمة للأمراء والوزراء وأرباب الدولة يهاديهم ويقضي حوائجهم[3] وقد كان ابن سويد صديقاً لابن خلكان ، وكان يعتمد على هذه الصداقة في قضاء بعض أعماله ، ومرة رأى ابن خلكان فيما يريده صديقه تجاوزاً لمبدأ العدالة لديه فاعتذر ، فقال له

---

١ ذيل الروضتين : ٢٣٤ .

٢ الدارس ٢ : ١٦٩ .

٣ انظر تفصيلات أخرى عن ابن سويد في ذيل مرآة الزمان ٢ : ٤٨٧ – ٤٨٩ ، والمؤلف يقص عنه حكاية في الوفيات ٦ : ٢٤٧ .

ابن سويد : ما يكون الصاحب صاحباً حتى يعرق جبينه مع صاحبه في جهنم فأجابه ابن خلكان : بلى يا وجيه الدين صرنا معك قشلمشاً وما ترضى[1] .

وكان شمس الدين قزا أوغلي من معارفه بدمشق ، وقد حدثه عن الاختلاف في تاريخ ولادته بين ما ذكرته أمه وما ذكره خاله ، وهذه الصلة كانت فاتحة لإفادته من كتابه « مرآة الزمان »[2] .

ولم تلهه مهماته الكثيرة عن ممارسة بعض أنواع « الرياضة الأدبية » ، فقد كان ابن خلكان — خضوعاً للروح السائدة في عصره — مغرماً بالألغاز ، ولهذا نجد الرسائل تدور بينه وبين صديقه ابن عدلان الموصلي (٦٦٦) القاطن بالقاهرة في هذا الأمر[3] . شيء واحد فقط حالت المهمات دون انجازه . وذلك هو تكملة التاريخ الذي بدأه ، ولكنه مع ذلك لم يكفّ عن اقتناء الكتب والاطلاع على ما يجده منها في ديار الشام ، واستخراج المادة التي تنفعه من بعد إذا سمحت الظروف بانجاز مشروعاته التأليفية . ولهذا فانه حين عزل عن القضاء سنة ٦٦٩ وجد الفرصة سانحة لاستئناف العمل في التأليف .

لماذا عزل ابن خلكان عن القضاء ؟ في ١٥ شوال سنة ٦٦٩ دخل الظاهر بيبرس إلى دمشق وعزل القاضي ابن خلكان ، فسافر ابن خلكان إلى الديار المصرية في شهر ذي القعدة[4] . وليس في المصادر أية إشارة إلى أن هذا العزل كان ناجماً عن أية تهمة واضحة وجهت إليه ، مما يمسّ عدالته أو دقته في أداء واجبه . كل ما تذكره المصادر أنّ بهاء الدين ابن حنا وزير الظاهر هو الذي سعى في أن يولّي عز الدين ابن الصائغ القضاء ، وأقنع الظاهر بذلك ، فكتب تقليده وهو بظاهر طرابلس قبل أن يصل إلى دمشق[5] . ويبدو أن

١ الصفدي ٧ : ٣١٠ — ٣١١ .
٢ ذيل مرآة الزمان ١ : ٤٢ .
٣ انظر صورة من هذه المراسلة في ذيل مرآة الزمان ٢ : ٣٩٢ . ٢٩٣ .
٤ عقود الجمان : ١٦١ (ومخطوطة برلين المذكورة) وابن كثير ١٣ : ٢٥٩ وذيل مرآة الزمان ٢ : ٤٥٢ .
٥ المصادر السابقة .

بهاء الدين لم يكن يرتاح كثيراً لابن خلكان ويعزى ذلك إلى صلة ابن خلكان بالأمير أحمد بن حجي ، فقد كان هذا الأمير ينتسب إلى البرامكة وإذا حضر إلى دمشق ذهب لزيارة ابن خلكان وقال له أنت ابن عمي ، فيضيفه ابن خلكان ويكرمه ، وكان ابن حجي يثني عليه عند الظاهر ، فاغتاظ من ذلك الصاحب بهاء الدين وعمل على عزله وذمّه عند الظاهر[1] .وسنرى من بعد كيف تعمد اذلاله وإهماله . وقد ذكر ابن حجر أن موسى بن أحمد ابن خلكان كان فيما يقال سيء السيرة وأن والده كان يطيعه وأنه كان السبب لذلك في عزل أبيه ، حتى قال فيه ابن ظهيرة :

وكيف يوثّى رشده حاكم　　　حكّم في لحيته موسى[2]

ولكن إن كان شيء من ذلك صحيحاً فانه يتصل بالعزل الثاني لا بهذا العزل الذي وقع سنة ٦٦٩ ، ذلك لأن موسى في هذه الحادثة لم يكن يتجاوز الثامنة عشرة ، ولم يكن قد طمح بعد إلى منافسة الآخرين في بعض المناصب ، بحيث تثور بسبب تصرفاته الحفائظ وينسب إليه سوء السلوك .

وحين عاد ابن خلكان إلى القاهرة معزولاً ، أخذ يبحث عن مصدر للرزق ، فيقال انه وجد منصباً تدريسياً في المدرسة الفخرية[3] ، ولكن ربما لم يستطع الحصول على هذا المنصب في أول عودته ، أو انه كان منصباً قليل العائدة ، إذ نجده في القاهرة يعاني ضائقة مادية شديدة ، وهو صابر ، وحين عرف بدر الدين بيليك الخازندار بما يعانيه أمر له بألفي درهم ومائة إردب قمح فأبى من قبولها[4] ؛ وزاد جفاء الصاحب بهاء الدين ابن حنا له في تلك الأيام ، وسبب ذلك فيما يقال أن ابن خلكان عمل للملك الظاهر نسباً ألحقه فيه بجنكزخان ،

---

١ عيون التواريخ ، الورقة : ١٢٧ .
٢ الدرر الكامنة ٥ : ١٤٣ .
٣ الوفيات ، مقدمة الترجمة الانجليزية ٤ : xiii وهذه المدرسة كانت فيما بين سويقة الصاحب ودرب العداس ، عمرها الأمير الكبير فخر الدين أبو الفتح عثمان بن قزل البارومي أستادار الملك الكامل محمد بن العادل (الخطط ٢ : ٣٦٧) .
٤ الصفدي ٧ : ٣١١ والمنهل الصافي .

فلما وقف عليه الظاهر قال : هذا يصلح أن يكون وزيراً ، اطلبوه . فخشي الصاحب على نفسه ، وسعى إلى أن أبطل القضية وجعل السلطان يتناساها [1] ؛ وتزيد هذه الرواية شيئاً ربما لم يتفق مع خلق ابن خلكان ونفسيته إذ تنسب إليه أنه كان كل يوم يركب ويقف بباب القرافة ، ويمشي قدام الصاحب إلى أن يوصله إلى بيته[2] ؛ وتصوّر مقدار ما بلغته حاله من الفقر بأنه لم يبق له غير البغلة يركبها وأن عبداً له كان يعمل ويطعمه من كسب يده[3] . ولكن ابن خلكان قضى في القاهرة – بعد العزل – ما لا يقلّ عن سبع سنوات، وربما كانت هذه الرواية إنما تصوّر حاله في آخر تلك الفترة ، إذ تجعل هذا الفقر سبباً في إعادته إلى القضاء مرة أخرى ، وعاملاً في اثارة عطف الصاحب بهاء الدين عليه ؛ ورغم ما قاساه ابن خلكان في هذه الفترة من ضائقة مادية مضى في اكمال كتابه ، وقراءة كتب جديدة يستمد منها المعلومات والفوائد . ولما عاد إلى القضاء بدمشق سنة ٦٧٧ كان قد انتهى من تدوين أكثر ما كان قد أرجأه بسبب زحمة العمل في شئون القضاء .

كتب تقليد لابن خلكان بقضاء دمشق وأعمالها من العريش إلى سلمية ، على مثل حاله السابق ، في ذي الحجة سنة ٦٧٦ ، وحضر عند السلطان الملك السعيد (إذ كان الظاهر والده قد توفي) لابساً للخلعة . وفي السابع والعشرين من الشهر المذكور توجه إلى دمشق ، فدخلها في ٢٣ محرم سنة ٦٧٧ ؛ وكانت الأخبار بتوليه القضاء قد وصلت إلى دمشق فامتنع ابن الصائغ عن مباشرة أعماله ؛ ولم تستطع السنوات السبع أن تنسي أهلها قاضيهم المحبوب ، فخرج الناس لتلقيه ، حتّى وصل بعضهم إلى غزة وبعضهم إلى الرملة ، وآخرون إلى قطيا ، وكان يوم دخوله مشهوداً ، لم ير ما يشبهه في الاحتفال والزحمة ، وركب نائب السلطنة عز الدين أيدمر بجميع العسكر لتلقيه ، وتوجه حال دخوله إلى المدرسة العادلية ، فجلس فيها ، وتوافد الشعراء يهنئونه ، وتبارى القراء في القراءة ، وألمح كثير من الشعراء إلى أن السنوات السبع كانت

١ الصفدي ٧ : ٣١١ .
٢ المصدر نفسه .
٣ المصدر نفسه .

مثل سني يوسف ، عجافاً ، وأن بعد السبع يجيء عام الغوث الذي حلّ عليهم بقدوم ابن خلكان[1] .

وفي سابع عشر صفر افتتحت المدرسة الظاهرية التي أنشأها الملك السعيد باسم أبيه ، في موضع دار العقيقي ، ولم تكن المدرسة قد كملت بعد ، وحضر الدرس نائب السلطنة عز الدين ايدمر وبقية القضاة والأعيان، وكانت المدرسة وقفاً على أصحاب الشافعية والحنفية ، وكان مدرس الشافعية رشيد الدين اسماعيل الفارقي صديق المؤلف وذو المدائح الكثيرة فيه ، وقد حضر قاضي القضاة درسه ومعه ابنه موسى ، أما مدرس الحنفية فكان صدر الدين سليمان الحنفي بعد استعفائه من قضاء القضاة بمصر[2] ، وفي ذي القعدة فتحت المدرسة النجيبية ، ودرس فيها ابن خلكان أيضاً ثم نزل عنها لابنه كمال الدين موسى ، وفتحت الخانقاه النجيبية ، وكان صاحب المدرسة والخانقاه ، قد جعل النظر في أوقافهما إلى ابن خلكان[3] ، وكذلك فعل في سائر ما أوقفه[4] .

وكانت أول رسالة وردت عليه من مصر بعد توليه القضاء هذه المرة ، رسالة بانشاء تاج الدين ابن الأثير الحلبي تبشر بوفاء النيل (سنة ٦٧٧) وفيها يقول : لا زالت أيامه مستفتحة بالهناء وسعادة الآناء وإشادة الثناء ، إذ كان أمل غيره من دهره إشادة البناء. وكلمة «غيره» هنا تشير فيما يبدو إلى القاضي الذي كان قبله ، وهو ابن الصائغ ، إذ كان يكثر من القول في مجالسه

---

١ عيون التواريخ، الورقة ٤٦، ٦٠ ومخطوطة كوبريللي (رقم ١١٢١) الورقة : ٨٤ والصفدي ٧ : ٣٠٩ – ٣١٠ ، وإنباء الأمراء ، الورقة : ٣٥ والمنهل الصافي ؛ وعقود الجمان الورقة : ١٧٧ ومخطوطة برلين المذكورة ، الورقة : ٤٤٦ وابن كثير ١٣ : ٢٧٩ – ٢٨٠ .

٢ عقد الجمان ، الورقة : ١٧٧ ومخطوطة برلين الورقة ٤٤٦ وابن كثير ١٣ : ٢٨٠ والوفيات ٤ : ١٥٦ – ١٥٧ (المتن والحاشية) ؛ وقد انفرد المؤلف بقوله ان افتتاحها كان في ١٧ صفر أما المصادر الأخرى فذكرت أن ذلك كان في ثالث صفر ، والمؤلف أدرى بذلك لأنه شهد افتتاحها بنفسه .

٣ المصادر السابقة نفسها .

٤ مخطوطة برلين ، الورقة : ٤٤٧ .

« عمرت في الأوقاف كذا وبنيت للأيتام كذا »؛ وقد أشار إلى هذا التعريض ابنه موسى[1] .

وقضى ابن خلكان في منصبه الجديد قرابة ثلاث سنوات وهو يصرّف الأمور دون منغصات ، إلى أن حدثت فتنة سنقر الأشقر ، وخلاصتها أن سنقر الأشقر تولى نيابة السلطنة بدمشق بعد عزالدين أيدمر الظاهري ، ثم ادعى لنفسه الاستقلال بالسلطنة ، وتلقب بالملك الكامل وحلف له القضاة والأعيان ، وكان الذي شجعه على ذلك اضطراب الأمور في مصر حول الملك السعيد وخلعه من السلطنة وتولية أخيه الملك العادل سلامش ، وعمره يومئذ سبع سنوات ، ثم عزله ومبايعة المنصور قلاوون الصالحي ، فلم يرض ذلك سنقر الأشقر وأراد الاستقلال بالسلطنة ، وأرسل إليه المنصور قلاوون يقبح فعله وأن ذلك يفرق الكلمة ويوهن الأمة ، فلم يصغ له . وعندئذ أرسل إليه المنصور جيشاً بقيادة علم الدين سنجر الحلبي ، فكانت الهزيمة على سنقر الأشقر[2] .

ويبدو أن ابن خلكان كان في من بايع سنقر الأشقر[3] ، ولذلك فانه ما كاد يدخل على سنجر الحلبي ليسلم عليه – حين استقر ركابه بدمشق – حتى قبض عليه واعتقله في علو الخانقاه النجيبية (٢٠ صفر ٦٧٩) واستدعى القاضي السابق ابن سني الدولة من حلب وعهد إليه بالقضاء بدلاً عنه[4] . وألح سنجر الحلبي على ابن خلكان بأن يخلي المدرسة العادلية ، كي يسكنها ابن سني الدولة ، فاستدعى ابن خلكان جمّالاً لينقل امتعته إلى جبل الصالحية ، وبينما كان نقل الأمتعة يجري ، وصلت رسالة من الملك المنصور قلاوون تتضمن عفواً عن كل من اشترك في فتنة سنقر الأشقر . وجلس سنجر الحلبي

---

١ الوفيات جـ ٥ : ٣٩٥ – ٣٩٦ (الحاشية) .
٢ ابن كثير ١٣ : ٢٨٨ – ٢٩١ وعقد الجمان ، الورقة ١٧٨ وما بعدها، وعيون التواريخ الورقة ٨٩ .
٣ في كنز الدرر ٨ : ٢٣٨ أنه افتى بقتال العساكر المصرية .
٤ ابن كثير ١٣ : ٢٩١ وعقد الجمان ، الورقة : ١٨٤ .

في دهليز بالميدان الأخضر وحضر عنده الأمراء والأعيان من عسكر مصر والشام وأعيان الناس ، وأخذ يقرأ عليهم كتاب المنصور ، وبعد التهنئة بالظفر والعتب على من اشترك في تلك الحادثة ورد ذكر العفو العام وفيه مما يخص ابن خلكان : « وغير خاف ما يتعين من حق المجلس السامي القضائي شمس الدين أحمد ابن خلكان ، أعزه الله تعالى ، وقديم صحبته بنا وخدمته علينا وأنه من بقايا الدولة الصالحية ، سقى الله عهدها ، وقد رسمنا باعادته إلى ما كان عليه من قضاء القضاة بالشام ، وبسطنا يديه في النقض والابرام »[1] . ومع الرسالة خلعة سنية لابن خلكان ، فركب القاضي من ساعته إلى حيث كان الأمراء مجتمعين وسلم عليهم ، ثم نزل وباشر الأحكام ، وأحضرت له خلعة التشريف فلبسها وصلّى بها الجمعة ، وكتب إلى الملك المنصور رسالة يدعو له فيها ويتنصل مما نسب إليه ويعتذر ، فجاءه جواب الملك المنصور بالشكر وقبول العذر ، وبعد مدة أضيف له قضاء منطقة حلب وأعمالها وأذن له أن يستنيب فيها من يختاره[2] ؛ ولا ريب في أن الناس ابتهجوا بالعفو العام الذي شمل كثيراً منهم ، ولكن الكثيرين ابتهجوا أيضاً لأن قاضيهم المحبوب كان ممن شملهم ذلك العفو[3] .

ولكن يبدو أن تصرف الملك المنصور لم يكن إلا تهدئة للحال ، واسترضاء للخواطر ، وإلا فانه لم يمر أكثر من شهر ونصف على اضافة منطقة حلب إلى ابن خلكان حتى جاءه كتاب العزل عن القضاء (٢٨ محرم سنة ٦٨٠) وتولية عز الدين ابن الصائغ[4] ؛ ولا تذكر المصادر شيئاً عن سبب هذا العزل ، سوى ما يمكن أن يقال عن تأثير ابنه موسى عليه ، مما ألمعت إليه من قبل ؛

١ عيون التواريخ ، الورقة ٨٩ — ٩٠ (ونسخة كوبريللي ، الورقة : ١٢٢) وباختصار في ابن كثير ١٣ : ٢٩١ وعقد الجمان : ١٨٥ .

٢ عيون التواريخ : ٩٠ ، ٩٢ (ونسخة كوبر يللي ، الورقة : ١٢٥) وانظر عقد الجمان : ١٨٦ ومخطوطة برلين : ٤٤٩ .

٣ ابن كثير ١٣ : ٢٩١ .

٤ عيون التواريخ : ١٠١ وعقد الجمان : ١٨٧ ومخطوطة برلين : ٤٤٩ وابن كثير ١٣ : ٢٩٣ .

وكان معنى هذا العزل أنه أيضاً ينحى عن التدريس في المدارس التي كان يتسلمها في العادة ، وانقطع بالمدرسة النجيبية التي كان يدرس فيها ابنه موسى ، وبقي له مرتب مقداره ثلاثمائة درهم في الشهر ، ثم أضيفت إليه المدرسة الأمينية خلفاً لعلاء الدين ابن الزملكاني [1] ، وكان ذلك في العاشر من صفر سنة ٦٨١ [2] ، واستمر على ذكر الدرس بالأمينية والعود إلى مسكنه بالنجيبية ، والاجتماع بمن يتردد إليه من العلماء والفضلاء والأدباء ، والبحث معهم والمذاكرة لهم وبث العلوم والفوائد، حتى ابتدأ به المرض يوم ٢٢ رجب ثم وافته منيته وقت أذان العصر من يوم السبت ٢٦ رجب سنة ٦٨١ بالمدرسة الجمالية النجيبية ، ودفن يوم الاحد التالي له ، صلي عليه بجامع دمشق ثم دفن بسفح جبل قاسيون في الصحراء ، شرقي التربة الصوابية الواقعة بسفح الجبل من جانبه الغربي [3] .

٤ — ثقافته — مذهبه — شخصيته .

قد مرّ بنا في الفقرة السابقة ذكر بعض ما درسه ابن خلكان في مراحل حياته التعليمية ، ومنه يتبين لنا أن المصادر قد أبرزت اهتمامه بدراسة الفقه وأصوله — وخاصة على مذهب الشافعي — ودراسة اللغة والنحو ، واتقانه لهذه العلوم ، التي لا نعرف له فيها مؤلفاً خاصاً ، ولكنها واضحة في كتابه كلما عرّج على بعض القضايا الفقهية واللغوية والنحوية ، مؤكدة بشهادة معاصريه والآخذين عنه ، فقد شهدوا له بالبراعة في الفقه والأصول والعربية وبالمعرفة بالمذهب (أي مذهب الشافعي) وبحسن ما صدر عنه من الفتاوى [4] ؛

---

١ انظر الدارس ١ : ١٩١ ، والمدرسة الأمينية قبلي باب الزيادة من أبواب الجامع الأموي المسمى قديماً باب الساعات ، وبانيها هو أمين الدولة كمشتكين بن عبد الله (الدارس ١ : ١٧٧).

٢ مقدمة الوفيات ٤ : الصفحة (ي) وعيون التواريخ : ١١٣ (ونسخة كوبريللي : ١٢٥).

٣ مقدمة الجزء الرابع من الوفيات : (ي ، ط) وانظر مخطوطة برلين : ٤٥١ وابن كثير ١٣ : ٣٠١ ، والدارس ١ : ١٩٣ .

٤ الدارس ١ : ١٩٣ نقلا عن تاج الدين الفزاري ، وانظر كذلك : المنهل الصافي .

وتلك المعارف – بالاضافة إلى عناصر أخرى في شخصيته – هي التي أهلته لمنصب القضاء، وكفلت له التوفيق في ذلك المنصب، مدة طويلة من الزمن، كما كفلت له القيام بأعباء التدريس فيما وكل إليه من مدارس .

غير أن الأخبار التي استطعت جمعها عن تحصيله العلميّ لا تصوّر إلا جانباً يسيراً من ثقافته ، فقد كان الرجل دائم الاطلاع ، محباً للكتب ينفق على اقتنائها ، أو يعتمد الاطلاع عليها في المكتبات الموقوفة على المدارس ، ويكاد كتابه أن يكون مرآة تصوّر تدرّج اطلاعه على تلك الكتب [1] .

ويفصح كتابه عن ميل شديد إلى الشعر وأيام الناس[2]، ويغلبه حبّه للشعر أحياناً ويزاحم لديه الحقيقة التاريخية ؛ وقد عرفنا أن ابن خلكان كان يطمح في أوائل عهده بطلب العلم أن يكون شاعراً ، وقد نظم كثيراً من الشعر – سيأتي الحديث عنه في موضعه – وربما انتسب إلى جمهرة الشعراء من أصدقائه أمثال ابن مطروح وابن الخيمي والجزار والبها زهير ، لولا أن انتسابه إلى القضاء كفل له رزقاً مقرراً ومكانة اجتماعية . وبعد العمل في القضاء لم تفتر صلته بالشعر والاهتمام به ، وتغذية الذوق الأدبي لديه باستمرار . وقد قيل فيه إنه كان أعرف الناس بديوان المتنبي في وقته[3] ، وهذا واضحٌ في كتابه نفسه ، لا من كثرة إحالاته على ديوان المتنبي وحسب ، بل لأنه عقد بعض التراجم في كتابه (مثل ترجمة فاتك وكافور) باعتماد كثير على الديوان . ونقل عن الشيخ تاج الدين الفزاري وغيره أنه كان يحفظ سبعة عشر ديواناً من الشعر [4] ؛ ولهذا يمكن أن يقال ان الموجه الاول في ثقافته كان هو نزعته الأدبية التاريخية ، وأن من مكملات تلك الصورة الثقافية اهتمامه بالفقه والنحو واللغة .

---

١ انظر فهرست « مصادر المؤلف » في الجزء الخاص بالفهارس العامة ، وانظر فيما يلي الحديث عن تأليفه لكتابه « وفيات الأعيان » .

٢ انظر أيضاً الدارس ١ : ١٩٣ نقلا عن الفزاري .

٣ المنهل الصافي ، وابن قاضي شهبة : ٢١١ (نقلا عن البرزالي) وابن طولون : ٣٥ .

٤ ابن قاضي شهبة : ٢١٠ .

ويكاد يكون من القول المعاد الوقوفُ عند مذهبه ، فقد تقدّم القول أنه كان شافعياً ، كما كان سائر أفراد أسرته ، وأنه ولي قضاء القضاة بالشام منفرداً يوم لم يكن يعين في هذا المنصب إلا شافعي ، ثم ظلّ يلي هذا المنصب حين عين قضاة لسائر المذاهب السنية ، فلا جدال في أن الرجل كان سنياً (وهو كرديّ الأصل) شافعياً . ولكن الذي حداني إلى الوقوف عند قضية المذهب اتّهام أحد المتأخرين له بأنه كان شيعياً يكيد للسنة ، ذلك هو غلام محمد بن الشيخ محيي الدين بن الشيخ عمر المدعو بالاسلمي صاحب الترجمة العبقرية [1] وهو يستشهد على اثبات اتّهامه باقتباس ابن خلكان للمصادر الشيعية ، ولعله يوميءُ إلى اهتمام المؤلف بالترجمة للأئمة الاثني عشر ثم بالترجمة لجميع الخلفاء العبيديين ، ولكن التهمة بالاتكاء على المصادر باطلة ، وسيثبت فهرست مصادر المؤلف الذي أفردناه في الجزء الخاص بالفهارس أن أكثر مصادر ابن خلكان إنما هي المصادر المعتمدة عند أهل السنة . ولو شئنا أن نقوي دعوى صاحب الترجمة العبقرية لقلنا : ومما يدلّ على الميل الشيعي لدى المؤلف أن كثيراً من أصدقائه كانوا من الشيعة بل من غلاتهم مثل أبي المحاسن الشوّا ، والشاعر الملقب شيطان الشام ؛ وأنه كان يرى في مدح الفرزدق لزين العابدين — محض مدح — « مكرمة ترجى له بها الجنة » [2] ؛ وأنه إذا ذكر معاوية في كتابه لا يترضى عنه [3] ؛ ولكنّ كل ذلك لا يدلّ على تشيع أو كيد للسنة . فنحن نستطيع أن نحمل اهتمامه بالأئمة الاثني عشر وبالخلفاء الفاطميين على محمل النظرة التاريخية الخالصة ، وصداقته للشيعة وغلاتهم على روح الانصاف والتسامح في قيام العلاقات الودية بين طرفين مختلفين في الانتماء المذهبي ؛ وإذا كان ابن خلكان لا يترضى عن معاوية فقد ورد بخطه الترضي عن عائشة

---

١ انظر الترجمة العبقرية والصولة الحيدرية للتحفة الاثنا عشرية (طوبقبوسراي رقم : ٣٨٦ ، الورقة ٤٨ /أ) ، والفضل في لفت نظري إلى هذا الكتاب يعود إلى الآنسة وداد القاضي .

٢ الوفيات ٦ : ٩٥ .

٣ وردت « رضي الله عنه » مرة واحدة عند ذكر معاوية ٥ : ٣٥٣ والنص غير منقول عن خط المؤلف ، وإنما كذلك ورد في المختار لابنه ، مما يدل على أن ابنه كان لا يتفق تماماً مع أبيه في هذا الموقف من الصحابة .

وعن طلحة والزبير ، وهم ممن خاصموا علياً وثاروا عليه ، أما انحرافه بعض الشيء عن معاوية وعمرو بن العاص وقبوله فيهما بعض الروايات الضعيفة ، فهو موقف لكثير ممن ينتمون إلى المذهب السني ؛ ويكفي أن أشير هنا إلى إنصافه – في موقف المؤرخ – حين أورد فتوى الكيا الهراسي في حال يزيد ابن معاوية فانه شفعها بفتوى الغزالي المناقضة لها [١] . بل انه – على المستوى الأدبي – كان شديد الغرام بديوان يزيد حتّى حفظه جميعه سنة ٦٣٣ بدمشق ، وعرف صحيحه من منحوله، وتتبع المنحول حتى ردّ كل أبيات لصاحبها ، وأثنى على شعر يزيد وقال انه في نهاية الحسن [٢] ؛ وخلاصة القول انه ربما كان ابن خلكان ميالاً إلى عليّ وآله ، في بعض المواقف ، ولكنه لا يحسب في الشيعة أو في من يكيدون للسنة ، كما أن ميله ذلك لم يبعد به عن منزلة الانصاف وتحري العدالة .

وإذ بلغنا الانصاف والعدالة في مناقبه فحري بنا أن نتحدث عن أهم العناصر التي تميزت بها شخصيته . لقد وصفته المصادر بأنه كان حسن الصورة فصيح المنطق [٣] ؛ كما وصفته بأنه كان جواداً كريماً لا يدخر شيئاً [٤] ، وقد جعلته هذه الصفة مع المنصب القضائي ، قبلة للمدح ، فكان مداحه من الشعراء كثيرين ، مثل سعد الدين الفارقي ونور الدين ابن مصعب ورشيد الدين الفارقي ونجم الدين أبي المعالي ابن اسرائيل الشيباني ، ومما مدحه به هذا الأخير ، رجاء أن يمنحه بيتاً في مدرسته قوله [٥] :

قاضي قضاة المسلمين ومن إلى … أبوابه تتوجه الرغبات
شمس المعاني والمعالي والذي … بسناه زال الظلم والظلمات
بحر المعارف والعوارف من جرت … أبداً له بفوائد عادات

---

١ الوفيات ٣ : ٢٨٧ – ٢٨٨ .
٢ الوفيات ٤ : ٣٥٤ .
٣ الدارس ١ : ١٩٣ وابن قاضي شهبة : ٢١٠ نقلا عن تاج الدين الفزاري .
٤ عيون التواريخ : ١١٥/أ .
٥ عيون التواريخ ، الورقة : ٧٥ ب .

وكان يجيزهم الجوائز السنية على مدحهم[1] .

كذلك وصف بالنزاهة وكمال العقل وثبات الجأش ، وهي خصائص هامة للقاضي ، مثلما هي هامة في معاملة الناس جملة ، ومن الطبيعي أن يكون الجدّ هو الصفة الغالبة عليه مع الوقار ، فهما من متطلبات القضاء أيضاً ، وهذا هو الذي جعل مجلسه حافلاً بالبحث والتحقيق والفوائد العلمية والأدبية[2] وكان أصحابه يحبون هذا المجلس للاقتباس من فوائده ، على أن ذلك لا ينفي أنه كان يميل إلى الدعابة المهذّبة في الأغلب . وكان شديد المسارعة إلى خدمة الآخرين إلاّ أن تؤدي الخدمة إلى ما يمس روح العدالة لديه ، كذلك تحدثت فيما سبق عن عفة يده عن قبول المساعدات المادية وهو في أشد حالات الضيق ؛ وكل هذه الصفات مع ما عرف به من الرفق ولين الجانب جعلته محبباً إلى من عرفوه[3] ، وكان شديد التحرّج من أن تجري في مجالسه الغيبة ، ويكره نقل الأخبار بالنميمة ، وله في هذا الباب حكاية عميقة الدلالة ، ربما ظننناها اليوم تتعارض مع منصبه القضائي ، فقد حضر إليه ذات يوم رجل يخبره أن اثنين من الشهود العدول لديه كانا عاكفين على الخمر في مكان ما ، فأرسل أحد النقباء يأمرهما باصلاح حالهما وتغيير هيئة المجلس ، ثم توجه إلى بيته ، حتى إذا عرف أن النقيب قد وصل وبلغهما ما أمره به ، استدعى الرجل الذي أفضى إليه بالسرّ وقال له : أنا أبعث معك النقيب (ثاني النقيبين) فان كان حديثك صحيحاً فعلت بهما ما ينبغي وإلا أشهرتك في البلد وقطعت لسانك؛ فوافق الرجل لتأكده مما رآه ، فأخذه النقيب وذهب به إلى ذلك المكان فلم يجد أثراً لمجلس شراب ، وأسقط في يد الرجل ، واعيد إلى ابن خلكان ، فأخذه في دهليز ومعه الدرة ، وأخذ يهدده ، فشفع فيه النقيب ، فقبل شفاعته ، ثم أحضر المصحف وجعله يحلف عليه بألا يعود يقذف عرض مسلم[4] ؛

١ المنهل الصافي ؛ وابن طولون : ٣٥ .
٢ ابن قاضي شهبة : ٢١١ والمنهل الصافي ؛ وابن طولون : ٣٥ .
٣ عيون التواريخ : ١١٥ /أ .
٤ عيون التواريخ : ١١٥ /أ–ب ، وشذرات الذهب ٥ : ٣٧١ – ٣٧٢ .

وربما كان بعض الناس لا يقبل مثل هذا التصرف ويعده غمزاً في عدالة الرجل وميله إلى التحرّي الدقيق عن أمانة شهوده ، ولكن القصة من ناحية أخرى تدلّ على مبلغ حرصه على ألا يكشف عورة أحد ، وعلى صدّه لمترصدي المزالق في الآخرين .

وقد أثار بعض معاصريه زاويتين أخلاقيتين للطعن في سلوكه الشخصي – بالاضافة إلى كذبه في نسبه – وهما تعاطيه الحشيشة وميله إلى الغلمان ، وقد أجاب عن الأولى بأنه لو كان يريد مثل تلك اللذة ، لشرب الخمر ، وأنه يرى في كل ما كان من قبيل الخمر والحشيشة أمراً محرماً ، وتوقف عن الاجابة على التهمة الثانية . وذهب بعضهم إلى تعيين محبوبه ، وإلى أنه كان يتصرف في بعض حالاته في حضور من يطمئن إليه تصرف المتيم الولهان[1] ؛ ومن الصعب أن يقول الباحث الحديث شيئاً في هذه القضية ، فان أكثر أشعار ابن خلكان التي وصلتنا غزلية ، ولعلّ الذين نسبوا إليه ذلك إنما كانوا متأثرين بما يسمعونه من شعره ودوبيتاته ؛ على أن التعبير عن أحاسيس النفس شيء لا تقف دونه روح التدين التي كانت تغلب على سلوكه العام ، وربما كانت هذه العاطفة ناجمة عن زمام شديد من الورع . وليس لنا أن نقول إنه إن كان هناك مثل ذلك الميل لديه ، فانه كان مواكباً لعهد الصبا ، ذلك لأن الحديث عن هذا الميل إنما كان في دمشق ، بعد أن عين قاضياً للقضاة ، وكان قد بلغ الخمسين أو تجاوزها . أياً كان الأمر فان صورة ابن خلكان التي يمكن رسمها من المصادر تدلّ على الاعتدال والتحرّج ، ومثل هاتين الصفتين تنبعان عن قوة في الارادة ، وهي صفة تحول دون الاستسلام للتيارات العاطفية أو الشهوانية .

وقد تجلت روح التدين لديه في كثير من الصفات التي مرت الاشارة إليها : كالنزاهة والعدالة وكراهية الغيبة ... الخ ؛ وربما اقترنت أيضاً باكثاره من زيارة القبور ، وذلك أمر كان يفعله منذ أن كان في اربل[2] ؛ ولكنا

١ انظر الصفدي ٧ : ٣١٢ والفوات ١ : ١٠٢ .
٢ انظر الوفيات ٢ : ٢٣٨ .

يجب ألا ننسى روح المؤرخ هنا ، فان زيارته للقبور كانت جزءاً من تعرفه إلى أماكن الوفاة ، وتدقيق ما يتصل بالتأريخ جملة [1] .

٥ ــ ابن خلكان الناقد الأدبي والشاعر :

نثر ابن خلكان أحكاماً نقدية كثيرة في مواضع من كتابه تدل كلّها على النموذج الشعري الرفيع في نظره ؛ ويؤخذ من تلك الأحكام أنه كان يعتبر شعر البحتري وصرّدر وسبط ابن التعاويذي وابن عنين نموذجاً لما يراه قمة الشعر العربي (دون أن ينقص ذلك من اعجابه العام بالمتنبي) فهو يقول في التعليق على بعض شعر البحتري : « هذا هو السحر الحلال على الحقيقة والسهل الممتنع ، فلله دره ! ما أسلس قياده وأعذب ألفاظه وأحسن سبكه وألطف مقاصده ، وليس فيه من الحشو شيء بل جميعه نخب »[2] ويقول في سبط ابن التعاويذي : « جمع شعره بين جزالة الألفاظ وعذوبتها ورقة المعاني ودقتها ، وهو في غاية الحسن والحلاوة ، وفيما أعتقده لم يكن قبله بمائتي سنة من يضاهيه ، ولا يؤاخذني من يقف على هذا الفصل ، فان ذلك يختلف بميل الطباع »[3]. ويقول في ابن عنين : « كان خاتمة الشعراء لم يأت بعده مثله ، ولا كان في أواخر عصره من يقاس به » [4]. ولا يقارب هؤلاء بل ربما تفوق عليهم في بعض شعره سوى مروان بن أبي حفصة في مثل قصيدته اللامية التي منها :

بنو مطر يوم اللقاء كأنهم   أسود لهم في بطون خفان أشبل

فقد قال في التعليق عليها : « هذا لعمري هو السحر الحلال المنقح لفظاً

---

١ راجع أمثلة ذلك في الوفيات ١ : ١٧١ ، ٢ : ٥٠٩ ، ٣ : ١٢٩ ، ١٣٥ ، ١٦٢ ، ٢٢٢ ، ٤ : ١٩٢ ، ٤٦٢ ؛ ٥ : ١٨ ، ١٩٧ .

٢ الوفيات ٦ : ٢٦ .

٣ الوفيات ٤ : ٤٦٦ .

٤ الوفيات ٥ : ١٤ .

ومعنى وحقه أن يفضل على جميع شعراء عصره وغيرهم »[1] . وكل هذا يدلّ على أن الشعر المحدث – في الأغلب – هو محط اعجابه ، وأنه يميل إلى حلاوة السبك الموسيقي المتلائم مع المعنى دون أن يكون الشعر معتمداً على حشو[2] ؛ ويتميز هذا اللون من الشعر بسهولة الجريان مثلما يتميز بالاستواء العام في المعنى ، وربما ارتفع إلى مستوى الجزالة المحكمة – دون نظر إلى ما تحتها من معنى ، ولهذا نجده يرد انتقاد المعري لابن هانىء حين وصف شعره بأنه يشبه رحى تطحن قروناً فيقول : « ولعمري ما أنصفه في هذا المقال ، وما حمله على هذا إلا فرط تعصبه للمتنبي »[3] . هذا هو رأيه العام في الشعر فاذا جاء إلى التخصيص وجدناه يعجب بالمخالص الجيدة والتقسيمات الموفقة وبعض أنواع الجناس[4] ، وذوقه في هذا لا يفترق عن أبناء عصره ؛ ويمكن أن نقول إن « مدرسة البحتري » هي التي صنعت مقاييسه النقدية ، على تفاوت المستويات في تلك المدرسة ، حتى حين تصل إلى الجزار وابن مطروح والبهاء زهير . ولديه مجموعة من المقاييس النقدية التي أصبحت معتمدة في عصره كالمفاضلة بين قصيدتين متشابهتين في الوزن والرويّ[5] ، والكشف عن تناوب الشعراء للمعنى الواحد ، أو الحديث عموماً عن قضية الأخذ والسرقة ، والتدقيق في تعقب الشعراء للاخلال الجزئي بالمعنى ، إلى درجة الاسراف أحياناً[6] .

وتدلّ هذه المقاييس النقدية على المستوى الذي كان يطمح إليه في شعره ؛ فهو شعر يمكن أن يوصف إجمالاً بالرقة والعذوبة ، ولكن ليس له نصيب من الجزالة ، أو من حلاوة موسيقى البحتري ، كما أنه مشغوف فيه بالتضمين

---

١ الوفيات ٥ : ١٩٠ – ١٩١ .
٢ راجع الوفيات ٤ : ٤٤١ حيث يبدي إعجابه أيضاً بشعر خالص من الحشو .
٣ الوفيات ٤ : ٤٢٤ .
٤ انظر الوفيات ٤ : ٤٦٤ ، ٤٤١ ، ١٦١ .
٥ الوفيات ٥ : ١٧ .
٦ انظر نموذجاً من ذلك في الوفيات ٦ : ٢٥٠ – ٢٥٢ .

ـ حسبما تبين القطع التي جمعتها له في هذه الترجمة ـ وللدوبيت عنده جمال خاص ، فهو يجمع إلى الرقة والعذوبة حرارة في العاطفة لا تتوفر كثيراً في قصائده، وكان أحياناً يتناول معنى ورد في شعر أحد الشعراء فيصوغه دوبيتاً [1]. وعلى الجملة لم يستطع ابن خلكان الناقد أو ابن خلكان الشاعر أن يرتفع فوق الذوق العام في عصره أو أن يباينه ، ولكنه كان مخلصاً في اعجابه بالنماذج الجميلة من الشعر المحدث .

١ الوفيات ٣ : ١٦١ .

كتابُ وفياتِ الأعيانْ

١ – ابن خلكان المؤرخ :

كتب ابن خلكان كثيراً ولكنه لم يؤلف إلا كتاباً واحداً ولم يعرف إلا به : كتب كثيراً من الشعر والنثر ، وقيد بخطه مسوّدات كثيرة ، وربما كانت هذه المسودات هي التي تشير إليها بعض المصادر حينما تقول انه صنع مجاميع أدبية [١] ؛ وقد أفاد هو من هذه المسودات في تأليف كتابه ، ويبدو أن الصفدي اطلع عليها ونقل عنها بعض المادة [٢] ؛ وإذا كان الصفدي قد صرّح بذلك فان غيره نقل أشياء دون تصريح ، وهذه المنقولات مما لم يرد في كتابه الوفيات : من ذلك قول الادفوي في البدر السافر : « مسعود بن عبد العزيز بن المحسن بن الحسن بن عبد الرزاق ، هكذا ذكره ابن خلكان وقال : انه رأى ذلك بخط بعض الحفاظ المتقنين » [٣] ؛ ونقل عنه صاحب ذيل مرآة الزمان نسب علي بن يوسف بن محمد بن عبد الله المارديني [٤] وشرف الدين الكرابيسي المشهور بابن العجمي [٥]؛ وجاء في مرآة الجنان نقل يتعلق بعبد القادر الرهاوي لا وجود له في الوفيات [٦]، وكل ذلك يدلّ على أن مقيدات ابن خلكان كانت أوسع بكثير مما تضمنه كتابه الوحيد الذي خلّد اسمه وهو « وفيات الأعيان » .

لسنا ندري – على وجه اليقين – متى بدأ بجمع كتابه هذا ، ولكن لدينا

١ الصفدي ٧ : ٣٠٨ .
٢ الغيث ٢ : ٧٨ .
٣ البدر السافر ، الورقة : ١٩٦ .
٤ ذيل مرآة الزمان ٢ : ٢٧ .
٥ ذيل مرآة الزمان ٢ : ١٩ ، وانظر أمثلة أخرى ج ١ : ١٩ ، ١٨٣ .
٦ مرآة الجنان ٤ : ٢٣ .

قطعة بخط المؤلف تنتهي بترجمة ذي الرمة، والمؤلف يسميها الجزء الأول ، ويذكر أنه فرغ منه يوم الجمعة بعد الصلاة رابع شهر ربيع الأول سنة ٦٥٥ [١] بالقاهرة المحروسة ؛ ثم تابع كتابة بقية التراجم ابتداء من حرف الفاء ، وفي نسخة مكتبة ولي الدين باستانبول (رقم ٢٤٦٠) التي تقف التراجم فيها عند يحيى بن خالد البرمكي ما يفيد أن تحريرها تم في سنة تسع وخمسين وستمائة (٦٥٩) ، وهذا يوافق ما قاله المؤلف نفسه من أنه اضطر إلى التوقف لتحركه إلى الشام متولياً منصب قاضي القضاة ، وأنه سيكمل كتابه إذا سنحت له الفرصة فيورد ما تبقى من تراجم كثيرة في حرف الياء ؛ ولدينا معظم القطعة التي أكمل بها كتابه بخطه ، ومن هذا يتبين أن كتاب ابن خلكان في صورته الأولى كان يضم ثلاثة أجزاء ، ولكنه أصبح في صورة أخرى خمسة كما يفهم من كلام ابنه موسى عندما صنع المختار . وقد انتهى ابن خلكان من اتمام كتابه يوم ٢٢ جمادى الأولى سنة ٦٧٢ بالقاهرة المحروسة، ولكن هذا لا يعني أنه توقف توقفاً تاماً عند هذا التاريخ ، إذ نرى فيه إضافات أخرى ، لعل آخرها كان سنة ٦٨٠ هـ .

كانت النواة الأولى لكتاب ابن خلكان موجودة في مسوداته مما نقله من المصادر التي اطلع عليها حتى سنة ٦٥٤ ومما قيده عن طريق الرواية والسماع ، ولكن نمو كتابه ظل يطرد مع الأيام ، إذ كان عثوره على المصادر وأخذ الفوائد منها يشبه الكشف المتدرج ، مع أنه كان يعتقد حين أنهى الصورة الأولى من كتابه (حتى ترجمة يحيى بن خالد) أنه «لم يترك كتاباً من الكتب التي في أيدي الناس المشهورة والخاملة، المبسوطة والوجيزة إلا اختار منه ما يدخل في كتابه» [٢] . ويمكن للمرء أن يقدر أن ابن خلكان

١ يقول المؤلف في مقدمته : وكان ترتيبي له في شهور سنة ٦٥٤ ، ولعل هذا لا يعني بداية التأليف ، وبذا تكون المسودة التي لدينا نسخة ثانية من الكتاب ؛ وقد درس هذه المخطوطة دراسة مطولة الأستاذ كوريتون — حين تملكها — في مقال نشره بمجلة الجمعية الاسيوية الملكية سنة ١٨٤١ ؛ وقد أفدت من مقاله في هذا البحث .

٢ الوفيات ٦ : ٢٢٩ .

رغم تنقله ، كان يقتني مكتبة حافلة بشتى المؤلفات ، فقد شهد ابنه موسى أنه رأى عند والده نسخة الوسيط للغزالي[1] وتملك كتاب « علماء الأمصار » تصنيف الحاكم النيسابوري ، بعد أن كانت النسخة في ملك شيخه ابن الصلاح (– ٦٤٣) وبيعت في تركته [2] ، ورأى ابنه موسى بخزانة كتبه عشرة كتب بخط الجواليقي منها الكامل للمبرد في جزء واحد ومنها الحماسة والخطب النباتية [3] ؛ وعدا عن الكتب التي اقتناها المؤلف اعتمد على كتب رآها عند الوراقين أو في المكتبات العامة ، فقد رأى لابراهيم ابن محمد اليزيدي كتاباً في اللغة اسمه « ما اتفق لفظه وافترق معناه » في أربع مجلدات ، ووصفه بأنه من الكتب النفيسة [4] ، ورأى نسخة من ديوان صريع الدلاء [5] ونسخة من الدرة الخطيرة بخط المؤلف ابن القطاع[6] ، وعدة نسخ من صحاح الجوهري بخط ياقوت الملكي وكل نسخة تباع بمائة دينار [7] ، وكتاب الحيل لبني شاكر وهو من أحسن الكتب وأمتعها في مجلد واحد[8] ، والملخص للتبريزي في أربع مجلدات[9] ، وديوان ابن بابك في ثلاث مجلدات[10] ، وتحقيق المحيط للخبوشاني في ١٦ مجلداً[11] . ولكن رؤية هذه المصادر لم تتفق له دائماً قبل أن أنهى الصورة الأولى من كتابه ؛ إذ يبدو أن اطلاعه على كتاب « الشامل للجويني » تمّ بعد أن كتب ترجمة الحلاّج ، ولذلك جاءت مناقشته

---

١ الوفيات ٤ : ٢٥٣ (الحاشية) .
٢ الوفيات ٥ : ١٩٥ .
٣ الوفيات ٥ : ٣٤٢ .
٤ الوفيات ٦ : ١٩٠ .
٥ الوفيات ٣ : ٣٨٤ .
٦ الوفيات ٣ : ٣٢٤ .
٧ الوفيات ٦ : ١١٩ .
٨ الوفيات ٥ : ١٦٢ .
٩ الوفيات ٦ : ١٩٢ .
١٠ الوفيات ٣ : ١٩٦ .
١١ الوفيات ٤ : ٢٣٩ .

لما ورد في الشامل بخط مختلف قليلاً عن خطه الأصلي[1] ؛ وهو يحيل دائماً إلى كتاب الأنساب للسمعاني ، ولكنه لم يجد الكتاب بمصر حين بدأ التأليف ولم ير منه إلا نسخة واحدة حين كان في دور الطلب بديار الشام ، وإذا ذكر الأنساب فانما يعني مختصره لابن الأثير[2] ؛ كذلك يبدو أن اطلاعه على الذيل للسمعاني انما تمّ في مرحلة متأخرة ، وقلْ مثل ذلك في كتاب اسمه « اللفيف » مجهول مؤلفه[3] وفي الترجمة الذاتية التي كتبها شيخه عبد اللطيف البغدادي[4] ؛ ولم يستطع الاطلاع على مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي إلا بعد أن عاش قاضياً في دمشق ورآه هنالك بخط مؤلفه في أربعين مجلداً[5] ؛ وقد مكنته اقامته بدمشق من أن يرى ديوان دوبيت لفتيان الشاغوري[6] وأن يرى في خزانة كتب المدرسة العادلية (في شوال ٦٦٥) كتاب التقريب في ست مجلدات (من أصل عشر مجلدات) وهي نسخة كانت للشيخ قطب الدين مسعود النيسابوري وعليها خطه بأنه وقفها[7] ؛ وكذلك تملك بدمشق (٦٦٧) نسختين من ديوان أبي الدر الرومي بعد أن كان يسمع أن له ديواناً صغيراً ، فوجده في عشر كراريس ، أي صدّق الخُبر الخبر[8] ؛ وإذا صحت رواية نسخة الظاهرية من الوفيات ، فان المؤلف رأى نسخة من مقامات الحريري سنة ٦٧٦[9] بخط مصنفها ، وباطلاعه عليها وجد أنها ألفت للوزير جلال الدين ابن صدقة وذلك مخالف لما كان قد أثبته حول تأليفها . ونجده لم يفد من كتاب « عقود الجمان » لابن الشعار إلاّ في مواضع قليلة تدلّ على

١ الوفيات : ١٤٦ وما بعدها ، وقد بدأ هذه الفقرة بقوله « قلت : وبعد الفراغ من هذه الترجمة ... الخ » .
٢ الوفيات ٤ : ٢٨٣ .
٣ انظر الوفيات ٦ : ١٢٦ ، ٣٨٧ .
٤ الوفيات ٦ : ٧٦ .
٥ الوفيات ٦ : ٢٣٩ ، ٣٥٣ ؛ ٣ : ١٤٢ .
٦ الوفيات ٤ : ٢٦ .
٧ الوفيات ٤ : ٢٠٠ .
٨ الوفيات ٦ : ١٢٥ .
٩ في بعض النسخ ٦٥٦ ، انظر الوفيات ٤ : ٦٤ .

أنه رأى الكتاب أو بعض أجزائه في دور متأخر ؛ ولم يظفر بمشيخة أستاذه ابن شداد إلا سنة ٦٨٠ ، وكانت النسخة مما قرىء على ابن شداد وكتب خطه عليها بالسماع [١] ، فاذا تذكرنا أن جانباً من ترجمة ابن شداد يعتمد على سرد مشيخته أدركنا إلى أي زمن جرى التعديل في تراجم كتاب الوفيات ؛ وكان تعرفه إلى كتاب « السيل والذيل » للعماد الاصبهاني بمصر أوائل سنة ٦٧٢ ، فوجده ذيلاً على الخريدة بعد أن كان يظنه ذيلاً على كتاب آخر [٢] ، وإذا كان قد فاته الافادة من كتب رآها في بعض مراحل حياته ثم لم يعثر عليها (كرسائل ابن زبادة التي رآها باربل أو بالموصل) [٣] فانه لم يكن يستغرق الاطلاع دائماً على المصادر الكبيرة ذات المواد المتشعبة مثل تاريخ ابن الأثير ، فهذا الكتاب يعد من أهم مصادره ، ومع ذلك فانه حين كتب ترجمة أبي الوفاء المهندس أخلى بياضاً لادراج تاريخ وفاته ، ثم وجدها في تاريخ ابن الأثير ، وكان بين الشروع في التاريخ والعثور على الوفاة أكثر من عشرين سنة [٤] ، فاذا قدرنا أنه شرع في الترجمة (وهي من القسم الثاني) سنة ٦٥٥ فانه لم يعثر على تاريخ الوفاة — في مصدر قريب منه — إلا سنة ٦٧٥ أو بعد ذلك ؛ وقد أقر المؤلف — في خاتمة كتابه — بأنه حين عاد من دمشق (٦٦٩) وجد في القاهرة كتباً كان يؤثر الاطلاع عليها ، وأن التخلي عن مهام القضاء مكنه من ذلك ، فلم ينتفع من تلك الكتب لاتمام كتابه وحسب ، بل لتحشية ما فاته في الصورة الأولى . ولا بد من أن نتذكر هذه التعديلات المستمرة في الكتاب عند الحديث عن التفاوت بين النسخ .

وكان في ذهن ابن خلكان وهو يجمع مؤلفه — في المرحلتين — أي قبل العهد الأول في قضاء القضاة وبعده ، أن يحقق خطة أخرى ، فيؤلف كتاباً كبيراً في التاريخ ، لأنه كان يرى أن مؤلفه ، على ما هو عليه ، كتاب مختصر .

---

١ الوفيات ٤ : ٢٦٤ .
٢ الوفيات ٦ : ٢٥٠ .
٣ الوفيات ٦ : ٢٤٦ .
٤ الوفيات ٥ : ١٦٨ .

هل كان ينوي أن يكتب تاريخاً عاماً أو أن يتوسع في كتاب للتراجم ؟ أكبر الظن أنه كان يخطط لتاريخ عام على مثال كتاب شيخه ابن الأثير ، لأنه كان يريد أن يسرد فيه تاريخ القرامطة مستوفىً ، وايراد تاريخهم على هذه الصورة لا يعتمد على التراجم — فيما أقدّر — وإنما يعتمد على الأحداث[1] ؛ وقد ظلّ هذا الأمل حياً حين انتهى من الصورة الأولى من كتابه ، وكان يقدر أن يجيء الكتاب المطوّل في أكثر من عشرة أسفار[2] ، وعاد إلى حديث القرامطة وايراد التفصيلات عنهم في التاريخ الكبير حين كتب ترجمة يعقوب ابن الليث الصفار[3] ، وهي ترجمة متأخرة كثيراً حتى عمّا قبلها وما بعدها من التراجم لأنه لا وجود لها فيما تبقى من مسودة المؤلف ، وعندما ختم الصورة الثانية من كتابه الوفيات كان ما يزال على عزم الشروع في كتابه المطوّل (أي سنة ٦٧٢) .

من السهل أن نقول إنه لم يفعل ذلك ، لأنه لم يستطع الانصراف إلى التأليف ، فقد كانت الفترة المتبقية من اقامته في القاهرة حتى عاد إلى منصب القضاء بدمشق (سنة ٦٧٦) لا تكفي لانجاز كتاب مطوّل كالذي كان يعتزم تأليفه ؛ ولم يذكر أحدٌ من معاصريه أو ممن جاء بعدهم أنه حقق تلك الأمنية ، وليس بين أيدينا اليوم مما يتصل به سوى كتابه « وفيات الأعيان » ومعنى ذلك كله أن أمنيته ظلّت أمراً نظرياً لم يخرج إلى حيز الواقع ، ولكن في النفس شيئاً من هذا القطع الجازم : ألا يمكن أن أكون مخطئاً في التقدير ويكون ما انتوى ابن خلكان كتابته تاريخاً مفصلاً في التراجم ؟ ترى لو وصلتنا نسخة آيا صوفيا (رقم : ٣٥٣٢) كاملة — وفيها تراجم كثيرة لا ترد في سائر النسخ — ألم يكن من الممكن عدّها ذلك التاريخ المطوّل ؟ وهذه المنقولات التي وردت في البدر السافر ومرآة الجنان وذيل مرآة الزمان وقدّرت أنها مستمدة مباشرة من مسودات المؤلف : ألا يمكن أن تكون

١ انظر الوفيات ٢ : ١٤٧ .
٢ الوفيات ٦ : ٢٢٩ .
٣ الوفيات ٦ : ٤٣١ .

مأخوذة من التاريخ المطوّل ؟ أم ترى الأمر بالعكس وأن المتأخرين الناقلين عن ابن خلكان خلطوا بين مسوداته وكتابه – كما أراده – وعدّوا كل ذلك كتاب « وفيات الأعيان » ؟ ومع ذلك فانني رغم توقفي عن الحسم في هذا الموضوع أجدُ العناصر المرجّحة لعدم تأليفه كتاباً مطوّلاً أقوى من العناصر التي تشير إلى وجود مثل ذلك الكتاب .

أياً كان الأمر فليس لدينا على وجه التحديد سوى كتابه « وفيات الأعيان » وقد كانت خطته في تأليفه واضحة تماماً حين شرع فيه ، ويمكن أن نلخص هذه الخطة التي بسطها في مقدمته على النحو التالي :

١) أنه لن يترجم إلا لمن عرف تاريخ وفاته ، وقد أكّد هذه الخطة في كتابه مرّات ، فلم يترجم للحسن بن وهب[1] ولم يترجم لكلثوم ابن عمرو العتابي[2] .

٢) أنه لن يذكر فيه أحداً من الصحابة ولا من التابعين ، إلا جماعة يسيرة ، فهل قوله إلا « جماعة يسيرة » يشير إلى التابعين وحدهم أو إلى الصحابة أيضاً ؛ ذلك أمرٌ غير واضح وهو مصدر لإشكال كثير حين نتحدث عن التفاوت في النسخ .

٣) أنه لن يذكر أحداً من الخلفاء .

٤) أنه سيذكر جماعة ممن شاهدهم ونقل عنهم أو عاصروه ولم يلقهم .

٥) أنه لن يقصر كتابه على طائفة مخصوصة مثل العلماء أو الملوك أو الوزراء أو الشعراء ، بل سيتناول كل من له شهرة بين الناس ويقع السؤال عنه .

٦) أنه يتوخى الايجاز في ما يورده .

٧) أنه يحاول اثبات المولد – ان وجده – ويرفع في النسب ان قدر على ذلك .

١ الوفيات ٢ : ٤١٦ .
٢ الوفيات ٤ : ٣٨٩ .

٨) أنه سيضبط بعض الألفاظ مما يمكن أن يقع فيه التصحيف .

٩) أنه يميل إلى تسجيل محاسن الناس من مكرمة أو نادرة أو شعر أو فكاهة ، لكي يكون التنويع طارداً للملل .

تلك خطة من تسعة بنود ، فالى أي حد تمسّك المؤلف بها ؟ يبدو أنه تمسك بالبند الأول (تحديد سنة الوفاة) في كلّ مراحل كتابه ، وأنه حين أبهم الاستثناء في البند الثاني جعلنا نعجز عن الفصل في أمر ترجمة عبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس وهما من الصحابة ، وهل هما ترجمتان أصيلتان في كتابه أو منحولتان ؛ وحين استبعد ذكر الخلفاء أوقفنا أمام إشكال كبير : هل قصد خلفاء بني العباس ؟ فان كان الأمر كذلك فلمَ ترجم لعبد الله بن المعتز وهو أحد من بويعوا بالخلافة ؟ وقد تعقبه اليافعي في هذا الصدد فقال : « كأنه يعني بالخلفاء المذكورين الخلفاء الأربعة رضي الله عنهم ، وما كان حاجة إلى ذكرهم ، فانه قد ذكر أنه لم يذكر أحداً من الصحابة ... وكلامه هذا يوهم أنه لم يذكر أحداً من الخلفاء الذين هم الملوك من بني العباس وغيرهم ، وليس كذلك ، بل قد ذكرهم »[1]؛ قلت : أما بنو العباس فانه لم يذكر منهم أحداً سوى ابن المعتز — حسبما جاء في النسخ المتفقة من كتابه — إلا أن يكون اليافعي يشير إلى نسخ اطلع عليها ورد فيها ذكر سليمان بن عبد الملك من بني أمية والمتوكل وأبي جعفر المنصور وغيرهما من بني العباس ؛ وأما الخلفاء من غير بني العباس فقد ذكر طائفة كبيرة منهم سواءً من العبيديين الذين ادعوا الخلافة لأنفسهم ، أو من الموحدين ، ولكن ربما كان ابن خلكان لا يعدهم خلفاء بالمفهوم الدقيق ؛ ومن الغريب أنه لم يترجم لعبد الرحمن الناصر أو لابنه الحكم المستنصر من خلفاء بني أمية بالأندلس ، في سياق اهتمامه بالترجمة للعبيديين والموحدين ، وترجم لمن هم أدنى منهما شأناً كابن صمادح والمعتمد ابن عباد من ملوك الطوائف . وثمة اشكال أُثير من زاوية شيعية ضدّ المؤلف ، فانه حين استبعد من كتابه ذكر الخلفاء ،

١ مرآة الجنان ٤ : ١٩٤ .

لم يذكر فيه علياً والحسنين ، ولكنه عاد إلى ذكر الأئمة المعصومين ، وهم خلفاء في نظر أتباعهم[1] وهذا اشكال لا يؤاخذ المؤلف عليه لأنه لا يدخل في معتقده ، مثلما لا يدخل في اعتقاده أن العبيديين كانوا خلفاء وأن الموحدين كانوا كذلك ، في نظر أنفسهم ونظر اتباعهم ، إذ انه لم يكن يؤمن بالخلافة إلا للأئمة من بني العباس ؛ حتى الخلفاء من بني أمية سمّاهم في أغلب الأحيان ملوكاً ، في غير موضعٍ من كتابه .

وقد تعقبه اليافعي مرة أخرى فيما يتصل بالبند الرابع وذلك أن المؤلف قد قال : وكذلك الخلفاء لم أذكر أحداً منهم اكتفاء بالمصنفات الكثيرة في هذا الباب ، لكن ذكرت جماعة من الأفاضل الذين شاهدتّهم ... الخ ». فقال اليافعي « وكلامه هذا أيضاً ليس بصائب فانه يوهم أنه لم ينقل إلا عن الذين عاصرهم ، وليس بصحيح ، فانه لم يقتصر على ذلك »[2] . والحق أن أسلوب المؤلف هنا موهم ، ولكن مقصده واضح من السياق العام لخطته .

وقد التزم المؤلف بالشرط الخامس فلم يقصر كتابه على طائفة دون أخرى ، ولكن الشهرة أمرٌ نسبي ، كما أن من يقع السؤال عنه ربما كان في عداد غير المشهورين ، ولكن له من الأهمية ما يحدو الناس إلى السؤال عنه ؛ والايجاز في الترجمة أمر نسبي أيضاً ، وسنجد فيما يلي أن المؤلف لم يلتزم بهذه الخطة في كثير من التراجم . وقد التزم التزاماً دقيقاً باثبات المولد حيثما وجده ، وبضبط الألفاظ والاسماء المشكلة ، وبتسجيل المحاسن ، وعدم الوقوف عند العيوب ، التزاماً لا يختل كثيراً ، وتلك هي البنود الثلاثة الأخيرة.

لقد أراد ابن خلكان أن يكون دقيقاً فيما رسم لنفسه من خطة ، ولكن عوامل كثيرة تدخلت لتفسد عليه ما كان يريده ، وأول تلك العوامل تراخي الزمن بين كتابة القسم الأول ثم كتابة القسم الثاني من الكتاب : كان في المرحلة الأولى موجزاً مدققاً فيما يختار ، لأنه كان يرى أمامه مشروعاً

---

١ انظر روضات الجنات : ٨٧ .

٢ مرآة الجنان ٤ : ١٩٤ .

كبيراً ليس من السهل الاستسلام فيه إلى التطويل ، فلما عاد إلى اكمال كتابه وجد نفسه في سعة من الوقت فأخذ يطيل في التراجم ، ويعتمد الاستطراد ، ولذلك جاءت تراجم حرف الياء ربع كتابه تقريباً ، لأنه أورد في حرف الياء تراجم لم يكن ليتوقف عندها لو طلب الايجاز أو حكّم قانون الشهرة ، ولأنه أخذ يحتال على ايراد التفصيلات التاريخية ضمن ترجمة واحدة ، فهو يؤرخ للدولة الصفارية في ترجمة يعقوب بن الليث ، ويؤرخ لدولة الموحدين في ترجمة يعقوب بن المنصور (وكأنه يئس من أن يجد الوقت الكافي لكتابة التاريخ الكبير) . ومع تراخي الزمن تتغير بعض القواعد الصارمة التي يأخذ المرء نفسه بها . ولنا أن نسأل : إذا كان الايجاز هو القاعدة الأصلية فلمَ هذا الاستطراد في ترجمة الخبزأرزي إلى ذكر حكايات مستفادة من كتاب « الهدايا والتحف » ، دون أن تكون لتلك الحكايات أية صلة بالترجمة [1] ، ولم كثر الاستطراد في ترجمة يحيى بن اكثم [2] ، ولم استكثر المؤلف في ترجمة ابن عبد البر من نقل حكايات من كتابه « بهجة المجالس » ، لا صلة لها بالترجمة [3]. ومع تراخي الزمن يقلّ التحرّج ، فبعد أن كان المؤلف شديد الحساسية في الدور الأول نحو النوادر غير المهذبة ، حتى في تراجم من اشتهر بها مثل ابن سكرة وابن الهبارية والبديع الاسطرلابي ، نجده بعد قليل يقول : إنه لا بد في المجاميع من الإحماض ، ويستطرد بذكر أشياء من هذا القبيل عن كتاب الهفوات للصابي [4] .

ومن تلك العوامل التي جعلته يعدّل في خطته ، الحاجة : فالفقهاء السبعة مثلاً أشهر من أن يترجم لهم في كتابه « ولولا كثرة حاجة فقهاء زماننا إلى معرفتهم لما ذكرتهم » [5] . كذلك خضع ابن خلكان — رغم وضوح خطته —

١ الوفيات ٥ : ٣٧٠ .
٢ الوفيات ٦ : ١٥٥ .
٣ الوفيات ٧ :
٤ الوفيات ٦ : ١٠٢ وانظر ٦ : ٥١ .
٥ الوفيات ١ : ٢٨٤ .

إلى ما تفرضه ندرة المصادر ، فهو يورد قصيدة كاملة لابن قاضي ميلة ظفر بها في ظهر كتاب لأنها لا توجد بكمالها في أيدي الناس[1] ، ومثل ذلك فعل في قصيدة أخرى للقاضي أبي يعلى حمزة بن عبد الرزاق بن أبي حصين[2] .

وقد حفزه الجهل الشائع بين الناس — وأحياناً بين الفقهاء من اقرانه — إلى أن يترجم لبعض الناس من غير المشهورين ، كترجمته لمطرف الصنعاني ، ولم يفعل ذلك إلا لأن الناس لا يعرفونه ، ولأن صاحبه العماد ابن باطيش نفسه قد أخطأ فيه فظنه مطرف بن الشخير[3] .

ولقد بدأ المؤلف عمله انتقائياً يستمدّ مادته من عدة مصادر ثمّ يلائم بين أجزائها بدقة تجعل القارىء يحسّ بمدى ما بذله في سبيل الانتقاء والدقة معاً من جهد ، غير أنه انتهى استرسالياً يأخذ مادته من مصدر واحد ، أو مصدرين ، وكأنه يلخص تلخيصاً ، كذلك فعل في ترجمة أبي يوسف القاضي فأكثرها تلخيص عن تاريخ بغداد للخطيب ، وكذلك هي ترجمة يعقوب ابن الليث الصفار ملخصة عن كتاب أو اثنين ، وهذه هي حال تلك الترجمة الطويلة التي عقدها لصلاح الدين فانها — باستثناء الشئون الهامشية الاستطرادية فيها — ملخصة عن سيرة ابن شداد وعن الكامل في التاريخ لابن الأثير .

ومنذ البداية كان تحديد معنى « العين » (مفرد أعيان) أمراً من العسير تصوّره ، ففي الدور الأول من التأليف نجد المؤلف يتوقف عند أشخاص لا يدري شيئاً يقوله فيهم مثل أبي طالب أحمد بن بكر العبدي النحوي فقد ورد في ترجمته « ولم أطلع على شيء من أحواله حتى أذكره »[4] ؛ ومثل أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن أبي سهل الكاتب فقد قال فيه « ولم أعلم من حاله شيئاً حتى أذكره ... وما ذكرته إلا لأجل كتابه (الخراج) »[5]

---

١ الوفيات ٦ : ١٥٩ .
٢ الوفيات ٥ : ٢٧٠ .
٣ الوفيات ٥ : ٢٠٩ — ٢١٠ .
٤ الوفيات ١ : ١٠١ .
٥ المصدر نفسه .

غير أن التراجم التي تشبه هاتين الترجمتين قليلة في كتابه .

وقد يستغرب المرء اصرار المؤلف على أن لا يترجم إلا لمن يعرف سنة وفاته ثم على أن يختار الترتيب الأبجدي من بعد ، ذلك لأن الترتيب الأبجدي قد أفسد على المؤلف ما يمكن أن يؤديه تحديد تاريخ الوفاة للقارىء من قيمة زمنية ، إذا شاء أن يتصور تطوّر الحياة الثقافية والأحداث التاريخية حسب تسلسل الزمن ؛ وربما كان أقرب تعليل لهذه الظاهرة هو أن المؤلف لم يتمسك بالتاريخ الدقيق لسنة الوفاة إلا بعد أن اطلع على ما صنعه أستاذه المنذري في « التكملة لوفيات النقلة » فتأثر به ، وأعجبته دقته ، فحاول أن يحاكي صنيعه ، ولكنه حين أخذ في ترتيب كتابه كان يريد أن يخرجه في صورة مغايرة للتي درج عليها أستاذه في ذلك الكتاب ، فاختار الترتيب على حروف الهجاء ليكفل لنفسه الاستقلال ؛ ولكنه لم يلتزم الترتيب الهجائي إلاّ في الاسم الأول ولم يراعِ ذلك في الأسماء الواردة في سلسلة النسب واضطرب لديه الترتيب في حرف العين كثيراً فجاء « عبد الملك » قبل « عبد السلام » وورد اسم « عبد الجبار » بعد « عبد الكريم » .

وحين تباعد طرفا الكتاب وانتشرت أجزاؤه حاول المؤلف أن يربط بينها لكي ينضبط له الكتاب وتتضح معالمه أمامه ، فأخذ يكثر من التحويلات إلى ما تقدم ذكره أو إلى ما سيأتي من بعد ، ولكنه رغم ذلك لم يسلم من وهم عارض أو نسيان ، فقد وعد بايراد ترجمة لأبي بكر محمد بن علي الماذراني ولم يفعل[1] وأحال على بيتين ذكرهما في ترجمة العلم الشاتاني ، ولا وجود لهما في المسودة أو في النسخ الأخرى[2] ، وكذلك وجه انتباه القارىء إلى منام ذكره في ترجمة المعتمد ابن عباد إلا أنه لم يرد في النسخ[3] وقال انه ضبط أسماء أجداد يحيى بن منده في ترجمة جده أبي عبد الله محمد ، ولم يرد شيء من ذلك[4] . ولعلّ المؤلف أدرج هذا الذي ذكره كله في

١ الوفيات ٢ : ٢٥٠ .
٢ الوفيات ٤ : ٨٤ .
٣ الوفيات ٥ : ١٨١ .
٤ الوفيات ٦ : ١٧١ .

أوراق ملحقة ، ثم ضاعت تلك الأوراق ، فان في مسودته مواضع كثيرة ينبه فيها إلى وجود « تخريجة » ولا وجود لهذه التخريجة نفسها ، كما أن هناك تحويلات أخرى على كراريس كان يحتفظ بها ، وبقيت التحويلات وضاعت الكراريس[1] .

على أنا لو فرضنا أن هذه التحويلات كانت ناشئة عن الوهم والنسيان فانها لا تستطيع أن تكون ، هي والتساهلات التي خرجت بالمؤلف عن خطته اضطراراً أو اختياراً ، أمراً يقلل من قيمة هذا العمل الذي قام به ابن خلكان ، وما أقلّ الكتب التي لقيت تقديراً وعناية وحظوة ، كذلك التقدير وتلك العناية والحظوة التي لقيها كتابه على مرّ الزمن ، سواء أكان ذلك بالتنويه بشأن الكتاب ، أو بالاكثار من استنساخه ، أو بجعله مركزاً لدائرة كبيرة من المؤلفات التي ذيلت أو الحقت به ، أو بالاقتباس منه والاعتماد على ما ورد فيه من معلومات ، أو باختصاره أو باستخراج تراجم منفردة منه ؛ ويطول بي القول لو أردت أن أقف عند كل ظاهرة من هذه الظواهر المذكورة .

ذلك لأن هذا المعجم في التراجم قد تميز بخصائص ومميزات أفردته في الاعتبار ، وجعلته موضع ثقة الآخذين عنه . وفي مقدمة هذه المميزات أنه جعل عاماً جامعاً ، وتلك ميزة في غيره تتحوّل إلى نقيصة أحياناً ، ولكنها لم تصبح كذلك فيه لسببين هامين : أولهما شدة تحرّي المؤلف في النخل والانتقاء ، والثاني سعة المصادر التي اعتمد عليها ، ولهذا جاء معجماً متوسط الحجم يسهل نسخه والرجوع إليه ، بخلاف المؤلفات ذات الأجزاء الكثيرة . وقد تمثلت خصائص المؤلف نفسه في كتابه ، وكان من أهمها الأمانة والنزاهة والعدالة ؛ فهناك أمانة في النقل ، لا يسمح المؤلف لنفسه معها بالتجوز في شيء ، حتى إذا صاغ خبراً من الذاكرة أشار إلى ذلك[2] ، وهناك نزاهة في الحكم على الأشخاص مهما كانوا يختلفون عن المؤلف في العقيدة أو في

---

١ انظر نموذجاً من ذلك في الوفيات ٦ : ٥٥ ، ٤ : ٣٩٩ .

٢ انظر مثالا على ذلك في الوفيات ٦ : ٤٧ .

منحى الحياة، وقد كفلت تلك النزاهة بروح القاضي العادل الذي لا يستطيع أن يتساهل في الخروج عن الانصاف . وقد برز ميل ابن خلكان إلى الاعتدال واضحاً في كتابه ، فانه كان يعالج تراجمه بسماحة خلق وسعة صدر ، وحسبنا أن نذكر كيف أنه ترجم لابن الراوندي ترجمة لم تعجب كثيراً ممن جاءوا بعده لأنه لم يحطّ فيها عليه ولم يصفه بالكفر والالحاد ؛ ويتمتع الكتاب بدقة فائقة ، لا من حيث الاختيار والانتقاء وحسب ، بل من حيث الضبط لكلّ ما يظن المؤلف أن القارىء بحاجة إلى ضبطه ؛ وهذا ما يجعل الوفيات مصدراً هاماً لضبط الأعلام وأسماء الأماكن .

وانعكست على الكتاب صفتان أخريان من صفات المؤلف ؛ أولاهما الروح الأدبية ، ولهذا كانت التراجم موضعاً للنزاع بين روح المؤرخ وروح الأديب ، ولكن المؤلف كان على وعي بما يصنع ، وكان ميله إلى الشعر يجعله أحياناً يجهد في البحث عن شعر لأشخاص ليس لهم في ميدان الشعر نصيب كبير ، كما أنه أضاع ترجمة كاملة في حلّ لغز[1]؛ والثانية تحرّجه الكثير مما يدعى الغيبة أو ذكر السيئات ، فقد تجاوز في هذه الناحية عن ذكر أشياء لم يتجاوز عنها الآخرون ؛ كانت رؤيته للحسنات أوسع منظوراً من رؤيته للعيوب ، وتلك خاصية تمثلها تمام التمثيل القصة التي مرّت بنا عن العدلين اللذين كانا يشربان الخمر ؛ وقد اتخذ تلك الخاصية مبدأ في مناقشة ما يورده الآخرون ، فهو ينقل ما قاله الفتح ابن خاقان في ابن باجة ويعلق على ذلك بقوله : « ولقد بالغ ابن خاقان في أمره وجاوز الحدّ فيما وصفه به من هذه الاعتقادات الفاسدة ، والله أعلم بكنه حاله »[2] ولم يورد تعليلاً لاعتقاده هذا ، كأن يبحث عن أسبابه في العداء بين ابن خاقان وابن باجة ، وإنما قال ما قال استئناساً منه إلى شعوره النفسي الذي يكره التمادي في إبراز العيوب . وقد يقال ان مثل هذا يناقض روح العدالة الصارمة ، ولكن الحكم على شئون الماضي إنما هو في الغالب حكم على قضايا ضاعت شواهدها اليقينية ، ومن

١ انظر الوفيات ٦ : ٢٥٥ .

٢ الوفيات ٤ : ٤٣٠ .

العدالة في هذا الموقف ، التوقف دون الترجيح ، أو الاستئناس إلى روح الاعتدال لدى البت في أمرٍ ما .

وقد حجب المؤلف كثيراً من الحكايات المتصلة بالعبث ، ومع أنه أباح لنفسه ايراد الاحماض بعد أن قطع شوطاً كبيراً في تأليفه ، فانه في الجملة ظلّ أقرب تعلقاً بروح الجدّ فيما يورده من أخبار .

ومن الانصاف أن نقول إن الروح الأدبية أو ميله إلى جانب الحسنات لم يستطيعا أن يكبّلا روح المؤرخ الناقد لديه ، فهو حصيف شديد التنبه في هذه الناحية ، إذا نقل خبرين متعارضين – رغم تفاوت الزمن – نبّه إلى هذا التعارض ، وإذا اقتبس مادة من كتاب لم يرسلها – كما ترسل الروايات – دون محاكمة أو تمحيص . ذكر نقلاً عن المرزباني أنّ والد الفراء حضر وقعة الحسين بن عليّ ، فتعقبه في هذا لأن الفراء الذي عاش ٦٣ سنة ، ولد سنة ١٤٤ بينما كانت معركة كربلاء سنة ٦٣ ، ومن غير المعقول أن يحضر والده تلك المعركة ويعيش ذلك العمر المديد[1]؛ ونقل عن الخطيب أن يحيى بن معين توفي في ذي القعدة سنة ٢٣٣ وأنه حج في تلك السنة ، وهذا متناقض لأنه لا يمكن أن يحج وأن تكون وفاته في ذي القعدة [2] ، وهكذا مضى في مواضع مختلفة من كتابه يناقش ويقرّر ، وكان أكثر نقده معتمداً على الحساب الزمني .

ومهما أوتي المرء من قوة النزاهة وروح العدالة ، فان هناك مؤثرات – ربما كانت لا شعورية – تظل تفعل فعلها في نفسه ، وخصوصاً حين يواجه المرء صعوبة الاختيار والتحديد ، وهي صعوبة لا مفرّ منها حين يكون المقياس في التمييز غامضاً أو مطاطاً . ويلحظ الدارس أن ابن خلكان كانت توجهه في اختياره عوامل كامنة لا يستطيع أن ينفك منها ؛ وفي هذا المقام يجب أن نتذكر أن ابن خلكان كان إربلياً برمكياً شافعياً ، فاذا أبرز دور الاربليين أو أطنب في الحديث عن البرامكة أو استكثر من تراجم الشافعية ، فانه لم

---

١ الوفيات ٦ : ١٨٢ .

٢ الوفيات ٦ : ١٤١ .

يكن يفعل ذلك بداعي التعصب ولكن الانتماء يحدّد أحياناً مجالات الاختيار ، ولنأخذ القضية الثالثة وهي أبرز القضايا ، أعني انتماءه إلى المذهب الشافعي ، فقد أوحت له نشأته على هذا المذهب بوفور « الأعيان » بين الشافعية دون أن يكون متعصباً لهم ، وسهّل عليه أبو اسحاق الشيرازي حين اطلع على كتابه « طبقات الفقهاء » أمر الاختيار ، فهو يتحدث عنهم واثقاً من دورهم الكبير في تاريخ الفكر والفقه الشافعيين ، وقد عددت الشافعية في تراجم الأجزاء الأربعة الأولى فوجدتهم يبلغون مائة وخمساً وخمسين ترجمة (من أصل ٦٨٠) ، وهذه نسبة تتجاوز ٢٢ بالمئة من ذلك المجموع ، فاذا أغفلنا تراجم الذين تقدّموا الشافعي في الزمن ، ومن لا ينسبون إلى مذهب معين ، ارتفعت تلك النسبة إلى أكثر من ذلك .

على أية حال ليست هذه الملاحظة انتقاداً لابن خلكان على أية ترجمة أوردها ، ولكنا حين نأخذ مقياسه مأخذ الجدّ ونحاسبه عليه ، تثور لدى الباحث نواح كثيرة صالحة للتأمل والتدقيق ، غير أنا كنا أسعد حالاً لو أنه زاد من مصادره وزاد من عدد تراجمه ، ولم يتوقف حيث كان يسأم الاطالة ، إذ أن الدارس الحديث أعرف بقيمة كل حقيقة صغيرة تذلل لديه عقبة من عقبات البحث العلمي ، وربما كانت حاجته إلى معجم يورد تراجم المغمورين تفوق حاجته إلى معجم يقتصر على ذكر الأعيان .

وربما كانت كلمة « مؤرخ » التي استعملتها في الحديث عن ابن خلكان غير دقيقة ، ولهذا أسرع إلى القول بأنه كانت لديه أدوات المؤرخ ولكنه لم يكتب تاريخاً ، ولم يمكنه الزمن إلا من تسليط وعي المؤرخ النابه على مجموعة من التراجم، بل لعلّه فيما يبدو بدأ في التاريخ، أو بجمع الاخبار عامة ، ثم بدّدها في جزئيات صغيرة، كان لديه تاريخ للصفاريين أدرجه في ترجمة واحدة، وتاريخ للسلاجقة وآخر للعبيديين ورابع للأيوبيين ، ومن قرأ التراجم بدقة وجد أنها « فِصَلٌ » من كلّ كبير . هل كان إحساسه بما يدور حوله هو السبب في أنه لم يقدم على كتابة تاريخ : كان يعلم أن ابن المستوفي منصرف إلى تاريخ إربل، وأن ابن الشعار يؤرخ لشعراء الزمان، وأن ابن العديم يخط

كتاباً ضخماً في تراجم الحلبيين ومن دخل حلب ،وأن شيخه ابن الأثير يكتب تاريخاً ضخماً ، وأن ابن ظافر كتب « أو يكتب » تاريخ الدول المنقطعة، وأن صاحبه سبط ابن الجوزي قد سطر تاريخاً في أربعين مجلداً ، أتراه اختار طريقه واعياً لانها تكفل التفرد ، وتحميه من الشعور بالعجز أو التكرار ، إن كان الأمر كذلك ، فحسناً فعل .

٢ ـ تفاوت النسخ :

يقول حاجي خليفة [١] إن وفيات الأعيان يشتمل على ثمانمائة وست وأربعين ترجمة ، وقد جاءت التراجم في المطبوعة المصرية ٨٢٦ ترجمة ، كما جاءت في طبعتنا هذه ٨٥٥ ترجمة ، أما عند وستنفيلد فقد بلغ العدد (٨٦٥) ولكن ما زاد عند وستنفيلد على ترجمات طبعتنا لم يكن سوى عنوانات لتراجم ذكر فيها الاسم وتاريخ الولادة وتاريخ الوفاة ، وقد أدرجنا هذه التراجم التي لم تكتب في احدى الحواشي [٢] ، ولم نفردها بالترقيم ؛ وإليك قائمة بالتراجم التي انفردت بها بعض النسخ دون بعضها الآخر :

١ ـ الترجمة (٦) : ابراهيم بن أدهم (ص) .

٢ ـ ابراهيم بن الوليد بن عبد الملك (ص) (ماحقات جـ ١ : ٤٤٣ ، ولم تأخذ رقماً) .

٣ ـ الترجمة (٧٧) : ابن عبد الحميد الجرجاني (ر س ص ونسخة برلين رقم Peterem 660) وقد حذفها المؤلف نفسه من بعد لأنها خطأ .

٤ ـ الترجمة (٧٩) :	أبو العباس القسطلاني	(ص)
٥ ـ » (١٣٤) :	المتوكل على الله	(ص)
٦ ـ » (١٤٨) :	حاتم الأصمّ	(ر ص)
٧ ـ » (١٥٠) :	حجاج بن أرطأة	(ر ص د)

١ كشف الظنون ٢ : ٢٠١٨ .

٢ انظر جـ ٣ : ٧٥ .

٨ – الترجمة (١٥١) : ابن مسكين (ر ص)
٩ – » (١٥٥) : الحسن بن علي (ص)
١٠ – » (٢٠٠) : حسان التنوخي (ر ص د)
١١ – » (٢٠٢) : حفص بن غياث (رص)
١٢ – » (٢٠٣) : الحكم بن عبدل (ر ص)
١٣ – » (٢١٤) : خالد المهلبي (ر ص)
١٤ – » (٢١٥) : خالد التميمي (ر ص)
١٥ – » (٢١٨) : خلف بن هشام (ر ص)
١٦ – » (٢٢٢) : خير النساج (ر ص والمطبوعة المصرية)
١٧ – » (٢٢٥) : داود الطائي (ر ص والمطبوعة المصرية)
١٨ – » (٢٢٨) : دعلج بن أحمد (ر ص والمطبوعة المصرية)
١٩ – » (٢٣٦) : ربعي بن حراش (ر ص والمطبوعة المصرية)
٢٠ – » (٢٥٣) : سالم الخاسر (ر ص)
٢١ – » (٢٧٨) : سليمان بن حرب (ر ص)
٢٢ – » (٢٧٩) : سليمان بن عبد الملك (ص)
٢٣ – » (٢٨٩) : شبيب بن شيبة (ص)
٢٤ – » (٢٩٢) : شعبة بن الحجاج (ص)
٢٥ – » (٢٩٣) : شعيب بن حرب (ص)
٢٦ – » (٢٩٤) : أشعب الطامع (ص)
٢٧ – » (٢٩٥) : شقيق البلخي (ص والمطبوعة المصرية)
٢٨ – » (٢٩٦) : شقيق بن سلمة (ص)

٢٩ — الترجمة	(٣٠٣)	: صالح بن عبد القدوس	(ص)
٣٠ — »	(٣٠٤)	: صالح المري	(ص)
٣١ — »	(٣١٨)	: عائشة أم المؤمنين	(ص)
٣٢ — »	(٣٢١)	: عبدا لله بن عمر	(المطبوعة المصرية ، وعنوانها عند وستنفيلد)
٣٣ — »	(٣٣٨)	: عبد الله بن عباس	(ص)
٣٤ — »		: أبو بكر الصديق	(ص)
٣٥ — »	(٣٤٠)	: عبد الله بن الزبير	(ص)
٣٦ — »	(٥٤٨)	: كلثوم بن عمرو العتابي	(ر)
٣٧ — »	(٦٩٥)	: محمد بن عبد الله بن طاهر	(مج)

ومن هذا الثبت يتبين لنا أن (مج) انفردت بترجمة واحدة وأن (ر) انفردت بترجمة واحدة وشاركت (ص) في خمس عشرة ترجمة ، وأن الترجمات الزائدة في (ص) ٣٣ ترجمة أوردت منها المطبوعة المصرية خمس تراجم ، وانفردت هذه المطبوعة بترجمة واحدة لم ترد في النسخ الخطية التي اعتمدناها ؛ ويبدو أن مراجعة نسخ أخرى قد تضيف تراجم جديدة ، فقد أورد أحد الذين اختصروا ابن خلكان ترجمة ابن مالك النحوي وقال : « وقع كذا في بعض النسخ »[1] ، وقد أشرت من قبل إلى أنه لو وصلتنا

---

١ هذا المختصر صنعه وجدي ابراهيم بن الحاج مصطفى سنة ١١٠٤ ، والنسخة التي أعتمدت عليها يملكها الصديق الأستاذ زهير الشاويش وقد تفضل مشكوراً باعارتها لي (وهي في ٦٤ ورقة) ومن هذا المختصر نسخة أخرى في طوبقبوسراي رقم E. H. ١٢٢٢ وتقع في ٩١ ورقة وتاريخ نسخها سنة ١١٦٠ ؛ ونص ترجمة ابن مالك كما وردت على الورقة ٣٧ من النسخة الأولى : « أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد الله بن مالك الطائي الجياني الشافعي اللغوي النحوي المقرىء : كان في الصرف والنحو والقراءة إماماً لا يجارى ، وحبراً لا يبارى ، وكان سهل النظم عذب النثر ، كامل العقل حسن السمت رقيق القلب صدوق اللهجة ، له التسهيل وشرحه ، وسبك المنظوم ، والكافية الشافية ، والخلاصة ، وشرحه ، واكمال الأعلام ، والمقصور والممدود ، وفعل وأفعل ، والنظم الأوجز ، والاعتضاد وعمدة الحافظ ، وشرحها ، وغير هؤلاء (كذا) من التصانيف النفيسة ، وكان أكثر ما يستشهد فيها بالقرآن الكريم ، فان لم يكن فيه شاهد عدل إلى أشعار العرب . ولد بجيان وهي في الاقليم الخامس من الأندلس ، مدينة حصينة لطيفة قريبة من قرطبة نحو خمسة أيام ، نحو=

نسخة (ص) كاملة ، لارتفع عدد التراجم الزائدة بنسبة كبيرة .

تلك هي الظاهرة الأولى من الخلاف بين النسخ ، أعني تفاوتها في عدد التراجم ، فكيف يمكن أن يفسّر مثل هذا التفاوت ؟ نحن نعلم أن المؤلف كتب كتابه في مرحلتين متباعدتين ، وأنه تولاّه بالتشذيب والحذف والزيادة، وأن الصورة الأولى من كتابه كانت متداولة بين النساخ منذ دور مبكر ، ولهذا السبب مثلاً ، وردت الترجمة رقم (٧٧) في بعض النسخ لأنها نقلت عن المسودة في ذلك الدور ، غير أن المؤلف عاد فحذف هذه الترجمة بعد عدة سنوات ، ولكن النساخ الذين رأوا الصورة الأولى لم يروا هذا الحذف . كذلك نجد ترجمة « يعقوب بن الليث الصفّار » غير واردة في المسودة التي وصلتنا مع أن بعض أجزائها وارد في المختار لابنه ، وهذا يشير إلى أن المؤلف كتبها في كراسة مستقلة ، لأنها ترجمة طويلة ، ولم يطلع على تلك الكراسة كثير من ناسخي الكتاب ، ومثل ذلك يقال أيضاً في ترجمة الوزير ابن الفرات .

غير أن هذا التعليل لا يفسّرُ كلّ ما حدث في الكتاب من زيادة في التراجم ، فبعض التراجم المزيدة خارجة على خطة المؤلف مثل ترجمة أبي بكر وعائشة وعبد الله بن عباس وعبد الله بن الزبير ، وبعضها قد صرّح المؤلف أنه لن يورده لجهله تاريخ الوفاة مثل ترجمة كلثوم بن عمرو العتابي ، فهل نستبعد هذه التراجم وأشباهها ونقول إنها دخيلة على الكتاب ؟ الجواب بالايجاب إذا لم نفترض أن المؤلف قد أخذ يؤلف كتاب تراجم مطوّلاً — مغيراً في خطته التي اعتمدها في الكتاب الموجز — ثم اختلط الكتابان لدى بعض النساخ ، فاذا لم يصحّ هذا الفرض فذلك يعني أن بعض المعلقين والناسخين قد رأوا أن بعض التراجم هامة ، وأنه لا بدّ من زيادتها ، ليصبح الكتاب مرجعاً أوفى ، وإلى هذا يلمح ما صنعه صاحب المختصر المشار إليه ، فانه وقف عند بعض الحروف فاقترح أسماء أخرى لم يوردها المؤلف، فمثلاً استقل

= سنة ستمائة ، وقرأ على جماعة ، ثم نزل بدمشق ، وأم بالعادلية إلى أن توفي سنة اثنتين وسبعين وستمائة ، رحمه الله سبحانه . وقع كذا في بعض النسخ » .

أن لا يرد في حرف الذال سوى ترجمة واحدة فقال : « ومما يناسب أن يذكر هنا ذو القرنين الصعب بن الريّان ، سئل ابن عباس رضي الله عنهما عن ذي القرنين الذي ذكر في القرآن المجيد فقال هو : من حمير – بكسر الحاء وسكون الميم كدرهم ، وهو حمير بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان وكان اسمه صعباً – كما ذكر ، وظهر زمن ابراهيم عليه السلام فبان من هذا أنه غير الاسكندر الرومي الذي بنى الاسكندرية المشهورة الآن ، وهو صاحب أرسطو وتلميذه ، وقد هلك في ناحية السودان ، أو بشهرزور ، وعمره ست وثلاثون كما ذكره صاحب حماة ، وأما بيان ذي يزن وذي كلاع وذي نواس وذي المنار وذي السيفين وذي اليدين فليس المحلّ به »[1] . وكذلك فعل صاحب المختصر في حرف الزاي ،فقد أورد ترجمة أبي القاسم يوسف بن عبد الله الزُجاجي – بضم الزاي وفتح الباء الموحدة –[2] واقترح في باب الكاف : كثير بن عمرو الهلالي ، وكعب بن عمير التغلبي وكلثوم بن عمرو العتابيّ[3] ، وفي حرف اللام لبيد بن ربيعة ، ولبيد بن عبدة[4] ؛ ومن الانصاف أن نقول إن صاحب هذا المختصر كان أميناً فميز ما في أصل ابن خلكان عما رأى هو زيادته، ولكن هذه الدقة ربما لم تكن متوفرة عند غيره ؛ وكانت الدوافع إلى ذلك متفاوتة : فربما ساء بعض المعلقين والنساخ ألا يروا في الكتاب تراجم للصحابة وبعض الخلفاء العباسيين فرأوا إكمال الفائدة بزيادتها ، وهناك آخرون كانت نزعتهم صوفية وآخرون ذوو نزعة مذهبية معينة فأضافوا من التراجم ما ينسجم مع هذه النزعة أو تلك . وأغلب الظن أن صاحب النسخة (ص) كان شديد الثقة بتاريخ بغداد للخطيب ، فأباح لنفسه أن يمزج عدداً مما ورد عند الخطيب بتاريخ ابن خلكان . وقد يكون الكتاب اختلط لدى النساخ بذيوله الكثيرة ، فنحن نعلم مثلاً أن تاج الدين عبد الباقي بن عبد

---

١ مختصر الوفيات ، الورقة ١٣ ب .

٢ الورقة ٢٠ ب .

٣ الورقة : ٣٤ .

٤ المصدر نفسه .

المجيد اليماني قد لخّص ابن خلكان وذيّل عليه في دور مبكر [1] ، ولا يستبعد أن يختلط الأصل بالذيل في مثل هذا العمل ، وهذا الخلط يحسّه من يطالع الفوات لابن شاكر وعقد الجمان للزركشي وغير ذلك من الذيول الكثيرة التي ألحقت بوفيات الأعيان [2] . وقد وجدت في مخطوطة برلين Pet. 191 نوعاً آخر من الخلط : فالتراجم هنالك هي التي أوردها ابن خلكان (ابتداء من ترجمة ابن سريج أحمد بن عمر) ولكنها محلاّة ببعض السجع في مفتتحها ويبدأ النقل الدقيق عن المؤلف ابتداء من ترجمة ابراهيم بن علي الحصري ، فاذا وصلنا ترجمة أحمد بن طولون وجدنا استطرادات تجاوزت عصر المؤلف وهكذا جرت النسخة بين اختصار وحذف لبعض التراجم وزيادة لأخرى . وبعض التراجم يمكن اعتباره مزيداً دون تردد كالترجمات التي وردت في النسخة (بر) في المتن أو في الحاشية مثل ترجمة ياقوت المستعصمي لأنه توفي بعد المؤلف . ويبدو من حواشي النسخة (س) أنه كان لدى ناسخها ثلاث نسخ يسمي احداها « النسخة الثالثة الكبرى » ، وكان يحاول التلفيق بين تلك النسخ ، ومع هذا فان (س) من أشد النسخ ايجازاً واقتصاراً على الصورة الأولى التي كتبها المؤلف ؛ لقد تداولت هذا الكتاب أيد كثيرة على مرّ الزمن ،وأضحى من العسير أن يصل المحقق بدقة إلى عدد التراجم التي خطها المؤلف بقلمه ،وقد كان من الممكن للمختار أن يدلنّا على ذلك لولا أن الموجود منه ينقص قسماً كبيراً من أصل الكتاب ، ولولا أن الاختيار يقوم على الحرية الكاملة ، ومن باب الحرية أن يحذف صاحب المختار تراجم بكاملها أحياناً .

أما الظاهرة الثانية من التفاوت بين النسخ ، فيتجلى في ورود الترجمة الواحدة في صورتين متفاوتتين ، ويمكن تعليل ذلك بأن المؤلف عدل عن الصورة الأولى في الترجمة إلى صورة ثانية ، كما فعل في ترجمة والد صلاح

---

١ توفي سنة ٧٤٤ وربما وقع عمله مباشرة بعد عمل ابن المؤلف في المختار من حيث الزمن، انظر البدر الطالع ١ : ٣١٨ .

٢ يراجع في هذا ما ذكره صاحب كشف الظنون « وفيات الأعيان » وان يكن غير مستوفى .

الدين (وشاهد ذلك خطّه في المسودة ، فان الصورة الثانية ثابتة بخط مختلف بينما اختفت الصورة الأولى) ، غير أن هذا التعليل ليس من السهل أن ينسحب على ترجمات أخرى مثل ترجمة جعفر البرمكي ، فان الصورة التي وصلتنا منها في المسودة موجزة جداً بينما جاءت في النسخ على شكلين مطوّلين متفاوتين . وتظلّ النسخة (مج) تمثل صعوبة من نوع متفرّد ، فانها تنفرد بشكل خاص لبعض التراجم مخالفةً فيه جميع النسخ الأخرى[1] .

وظاهرة ثالثة من التفاوت بين النسخ تتمثّل في مقدار ما تحتويه الترجمة الواحدة . ولهذه الظاهرة أسباب كثيرة، منها أن المؤلف كان يزيد تباعاً بعض التحشيات في نسخته ، وقد ذكرت من قبل أن الكتاب أصبح ينسخ ويتداول قبل أن تكتمل الصورة الأخيرة من الكتاب ، وبعض الزيادات ينبىء عن ذوق شعري ، فحيث اقتصر المؤلف على ذكر بعض أبيات للمترجم به ، جاء من يزيد فيها استكثاراً من الشعر ، وهناك زيادات إحماضية كان يتفكه بها بعض المعلقين ، كما أن هناك زيادات نقلت من موضع من الكتاب إلى موضع آخر للمناسبة ؛ وهناك أخبار رأى بعض المعلقين أن إضافتها ضرورية ، لأنها تزيد في الفائدة المرجوّة من الكتاب . وقد كانت تحويلات المؤلف على هامش مسوّدته بقوله « ها هنا تخريجة » أو ما أشبه ، مدعاةً إلى تساهل بعض المعلقين فيما يدرجونه ؛ وربما استطعنا القول إن تراجم الأدباء والشعراء مثل جرير وجميل وأبي العتاهية قد تحملت القسط الأوفر من تلك الزيادات ، إذ كان المعلقون يستسلمون إلى ما جاء في كتاب الأغاني من مادة غنيّة تفصيلية ، كما أن بعضهم وجد في كتاب الجليس والأنيس للمعافى ابن زكريا مادة أخرى خصبة ، فان النقول عن هذا الكتاب تدخل كلها فيما انفردت به بعض النسخ ، إلا مرة واحدة كان فيها النقل أصيلاً من عمل المؤلف نفسه ؛ وتنفرد (د) وهي من أصول وستنفيلد بمادة لم ترد فيما عداها من النسخ ، وذلك يلقي شكّاً على أصالة تلك المادة ؛ كما أنّ النسخة

١ انظر الجزء الخامس، الترجمة ٦٩٦ ب لمحمد بن عبد الملك الزيات ، وهامش ص ١٠٩ ؛ وهناك فقرات مختلفة تماماً في قراءتها اثبتناها في هوامش أخرى .

(ص) تمثل مشكلة من نوع آخر ، فبعض التراجم تلتقي نصاً مع ما في المسودة ، وبعضها تميل إلى الاسهاب ، وتخرج في حدودها عن كلّ ما يمكن أن يكون المؤلف قد رسمه .

وعلى هذا فليس هناك مطبوعة — بين المطبوعات المختلفة التي صدرت لهذا الكتاب — تمثل حقيقة ما صنعه المؤلف بدقة ، ولا يهيء ذلك إلا النسخة ذات الأجزاء الخمسة التي كانت في ملك ابن المؤلف ، والتي صنع المختار بالاعتماد عليها ، فأما النسخة الموجودة لدينا من أصل المؤلف ، فهي — بالاضافة إلى ما نقص منها — لا تمثل الصورة الأخيرة تمام التمثيل ، وقد كان يخيل إليّ عند العثور عليها أنها تحقق هذا الرجاء . ومن الأمانة أن أقول إنني أدرجت التّرجمات التي انفردت بها بعض النسخ ، وأنا غير واثق من صحة نسبتها إلى المؤلف ، ولكن الأمانة كانت أيضاً تقتضي ألا أغفلها ، وعلى هذا أثبتها وميزت في الحواشي النسخة التي انفردت بها ، أو عبرت عن شيء من الشكّ في أن تكون من عمل المؤلف .

وقد كنت أودّ أن أدوّن هنا ما اطلعت عليه من نسخ ابن خلكان في المكتبات التي زرتها باستانبول وبورسه واسكدار وبرلين وتوبنجن والمتحف البريطاني ومنشستر وأدنبره ، وأن أصف كلّ نسخة منها ، وهي تقارب الثمانين بين نسخة كاملة أو أجزاء من نسخة (هذا عدا عما اطلعت عليه من مختصرات للكتاب) ولكني وجدت ذلك يثقل هذه المقدّمة بتفصيلات كثيرة فأضربت عنه ، وربما كان في ما لم أطلع عليه في المكتبات الاخرى ما يفيد في تحقيق هذا الكتاب ، ولكن هذا يحتاج إلى أضعاف ما بذلت من جهد في السفر والكلف والاعتكاف الطويل في المكتبات ، والمرء مرهون بالاستطاعة ، بعد استمداد العون من الله سبحانه وتعالى .

أشعار ابن خلكان ودوبيتاته

— ١ —

قال يمدح الملك الكامل ناصر الدين أبا المعالي
محمد بن محمد بن أيوب بن شاذي

هوى بين أحناء الضلوع مخامر | وفرط غرام أضمرته السرائر
ومشرع حب كلما قلت قد صفت | موارده أبدت قذاه المصادر
خليليّ ما بال النسيم معطّراً | أجاور نجداً أم أضاعته حاجر
ولا تعجبا أني شعرت فانني | شممت الشذا إذ مرّ بي وهو خاطر
تضمن نشر المالكية طيه | وما آفة الأسرار إلا النواشر
نشدتكم هل بعد عزة أعشبت | عراص الحمى أم روّضَ الجزع ماطر
وهل عذبات البان صوحن بعدها | لعظم الأسى أم هن لدن نواضر
إذا أومض البرق اليماني شمته | برجع جفون لحظها متخازر
أردد فيه الطرف حتى كأنني | إلى ضوء ثغر المالكية ناظر
ترى تسمح الايام يوماً بزورة | فَينعم مهجور ويُنعم هاجر
لئن نزحت ذات الوشاحين فالجوى | مقيمٌ بقلب رسمُ مغناه داثر
تولّتْ ولما يقض منها لبانةً | أخو أسف يلقى النوى وهو صابر
يحن اشتياقاً إن تألق بارق | بأعلام حزوى أو ترنم طائر
غريبٌ ثوى بالشام كرهاً وقلبه | إلى الشرق في إثر الظعائن سائر
يمني بطيف المالكية جفنه | وكيف يزور الطيفُ والطرفُ ساهر
وركب كأمثال السهام تقلّهم | نواصل أمثال الحنايا ضوامر
تؤم جناباً كاملياً معظماً | لهيبته تسرتدّ عنه النواظر
إلى ظلّ سلطان لعزّ جلاله | وسطوتِه تعنو الملوك الجبابر

إلى الكامل الملك الذي بحر جوده لورّاده عذب المذاقـة وافر
هو المخصب الاكناف والعامُ مجدبٌ ومخجل فيض السحب والنوء هامر
لميتِ الندى والحلم والعلم مُنْشِرٌ وللعدل في كل البسيطة ناشر
كتائبه أنصار ديـن محمد فطوبى لمن أضحى إليه يهاجر
لقد خذل الباغين منصورُ جيشه ولكنه للدين في الله نـاصر
فردّ وجوه الروم سوداً ببيضه فعاد بأحزاب الصغار الأكابر
وفي سمره حمر المنايا فمن سطا ثعالبها تخشى الليوث الخوادر
ولم يلقه الأعداء إلا لعلمهم بما يقتضيه حلمـه وهـو قادر
يسيء إليهم بأسه وهو غائب ويحسن فيهم عفوه وهو حاضر
ويربي على الطود الأشم وقاره وقد سئمتْ ضرب الرقاب البواتر
إليك ابنَ أيوب سمت بيَ همـة هداها ضياءٌ مـن جبينك ظاهـر
وما أثبت الأخبار في الجود كلهـا لدى الناس إلا جودك المتواتـر
ولولاك مـا كنـا نحقق أنه يفوقُ الملوكَ الأولين الأواخر
فما قدر وسعي أن أتيتك مـادحاً بنظم ولو أن الكلام جواهر
فلا زلت منصوراً وللـدين ناصراً وضدك مقهور وجدّك قاهر[1]

— ٢ —

وسمع قول ابن الساعاتي :

لما رأيت هلال وجهك آفلاً ورأيت خدك قـد علاه قتامُ
عرّجت بالوجنات أندب رسمها « يا دار ما صنعت بك الأيام »

فعمل هذه الأبيات :

لما رأيت ديار وجهك أوحشـت أرجاؤها وتنكرت أعلامهـا
أنشدت في عرصاتها مترنمـاً « عفت الديار محلّها فمقامها »[2]

---

١ عقود الجمان لابن الشعار ١ : ٤٥٦ – ٤٥٨ .
٢ عقود الجمان لابن الشعار ١ : ٤٥٨ .

— ٣ —

وقال :

لما نظرت إلى أرجـاء وجنته ورسمها طامسٌ محت علائمه
ظللت أندبه شجواً وأنشـده « يا منزلاً باللوى أقوت معالمه »[1]

— ٤ —

وقال :

ألا يا حمامات بمنعرج اللـوى اليكنّ عن شوقي وعن برحائي
فما الوجد منكن الغداة مبرحاً كوجدي ولا تبكين مثل بكائي[2]

— ٥ —

وقال أيضاً يرثي الملك العزيز محمد صاحب حلب :

هوى من نظام الملك واسطة العقد ولم يك من صرف المنية من بد
فما للرماح السمر مشرعة القنا وما للصفاح البيض مرهفة الحدّ
أمن بعد فقدان العزيز محمد تدور رحى حرب على صافنٍ نهد
إذا عطلت من هذه حومة الوغى فما تصنع الفرسان بالقضب والملد
لقد جلّ هذا الرزءعن وصف واصف كما كلّ عن ادراكه حدّ ذي حد
سقى جدثاً ضمّ المكارم تربه ولحداً حوى تلك المناقب من لحد
مواطر دمع ما تزال تمدها سحائب تحدوها مواسم من وجد
فلله ما أذكى ثراه كأنما تنفس في روض المراحم عن ند
لئن أظلمت دنيا العفاة لفقده فقد أشرقت من وجهه جنة الخلد
عليك سلام الله يا خير مالك مضى غير مصحوب سوى حلة الحمد[3]

١ عقود الجمان لابن الشعار ١ : ٤٥٩ .
٢ عقود الجمان لابن الشعار ١ : ٤٥٩ .
٣ عقود الجمان ١ : ٤٥٩ — ٤٦٠ .

— ٦ —

وقال :

قلت للائم في الدمـــع وقـد نمّ بحـالي[1]
منـذ أحببت عليـاً صـار دمعي متـوالي

— ٧ —

وقال :

يا من كلفت به فعذب مهجتي رفقاً على كلف الفؤاد معذب
(إن فاتـه منك اللقاء فـانـه يرضى بلقيا طيفك المتأوب)[2]
قسماً بوجدي في الهوى وبحرقتي وبحيرتي وتلهفي وتلهـبي
لو قلت لي جد لي بروحك لم أقف فيما أمرت وان شككت فجرّب
مولاي هل من عطفة تصغي إلي قصصي وطول شكايتي وتعتبي
قد كنت تلقاني بوجـه باسم واليوم تلقاني بوجـه مقطب
ما كان لي ذنب إليك سوى الهوى فعلام تهجرني إذا لم أذنب
قل لي بأي وسيلة أدلي بها ان كنت تبعدني لأجل تقربي
وحياة وجهك وهـو بدر طالع وجمال طرتك الـتي كالغيهب
وفتور مقلتك الـتي قد أذعنت لكمال بهجتها عيـون العتب
وبياض مبسمك النقي الواضح الــعذب الشهي اللؤلؤي الأشنب
وبقامة لك كالقضيب ركبت من أخطارها في الحب أصعب مركب
لو لم أكن في رتبة أرعى لها الـعهد القديم صيانـة للمنصب
لهتكت ستري في هـواك ولـذّ لي خلع العذار ، ولجّ فيك مؤنبي
قد خانني صبري وضاقت حيلتي وتقسمت فكري وعقلي قد سبي
ولقد سمحت بمهجتي وحشاشتي وبحالتي ووجاهتي وبمنصبي

---

١ الزركشي ١ ، الورقة : ٥٢ .
٢ البيت زيادة من طبقات السبكي .

حتّى خشيت بأن يقول عـواذلي		قد جنّ هذا الشيخ في هذا الصبي
فانظر إليّ برحمـة أحيا بها		وتريح قلبي من غرام متعب[1]

— ٨ —

ووردت القصيدة السابقة على النحو الآتي أيضاً[2] :

يا سادتي إني قنعتُ وحقكـم		في حبكم منكم بأيسر مطلـب
إن لم تجودوا بالوصال تعطـفـاً		ورأيتمُ هجري وفرطَ تجنبي
لا تمنعوا عيني القريحة أن ترى		يوم الخميس جمالكم في الموكب
لو كنت تعلـم يا حبيبي مـا الذي		ألقاه من كمد إذا لم تركب
لرحمتني ورثيتَ لي من حالة		لولاك لم يك حملهـا من مذهبي
ومـن البليـة والرزيـة أنني		أقضي وما تدري الذي قد حلّ بي
قسماً بوجهك وهـو بدر طالع		وبليل طرتـك التي كالغيهب
وبقامة لك كالقضيب ركبت من		أخطارها في الحب أعظم مركب
وبطيب مبسمك الشهي البارد الـ		ـعذب النمير اللؤلؤي الأشنب
لو لم أكن في رتبة أرعى لها الـ		ـعهد القديم صيانـة للمنصب
لهتكت ستري في هـواك ولـذّ لي		خلع العذار ، ولج فيك مـؤنبي
لكن خشيت بأن يقول عـواذلي		قد جن هذا الشيخ في هذا الصبي
فارحم فديتك حرقة قد قاربت		كشف القناع بحق ذياك النـبي
لا تفضحنّ بحبك الصبّ الذي		جرعته في الحب أكدر مشرب

— ٩ —

وقال :

وسرب ظبـاء في غدير تخالهم		بدوراً بأفق الماء تبدو وتغـرب

---

١ مخطوطة برلين رقم We 407 الورقة ١٧٥ ب ، وطبقات السبكي ٥ : ١٥ .
٢ الفوات ١ : ١٠١ — ١٠٢ والزركشي ١ : ٥٣ والشذرات ٥ : ٣٧٢ وفيه الأبيات ١ — ٣ ، ٧ وبعده الثالث من الرواية السابقة ، ٨ ، ٩ ، ١٠ — ١٢ ؛ وعيون التواريخ الورقة ١١٥ (أحمد الثالث : ٢٩٢٢/٢١) .

يقول عـذولي والغرام مصاحبي أما لك عن هذي الصبابة مـذهـب
وفي دمك المطلول خاضوا كما ترى فقلت له : ذرهم يخوضوا ويلعبوا [1]

— ١٠ —

وقال :

كم قلت لما أطلعت وجناته حول الشقيق الغض روضة آس
لعذاره الساري العجـول بخده « ما في وقوفك ساعة من باس »[2]

— ١١ —

وقال :

لما بدا العارض في وجهه بشرت قلبي بالنعيم المقيم
وقلت هـذا عارض ممطر فجاءني فيه العـذاب الأليم[3]

— ١٢ —

وقال :

انظر إلى عارضه فـوقـه لحاظه ترسـل منها الحتوف
تشاهد[4] الجنـة في وجهه لكنها تحت ظلال السيوف[5]

— ١٣ —

وقال :

ولمـا أن تفـرقنـا وحالت نوب الدهر

---

١ الفوات ١ : ١٠٢ — ١٠٣ والزركشي ١ : ٥٣ ب والصفدي ٧ : ٣١٣ والشذرات ٥ : ٣٧٢ وعيون التواريخ : ١١٧ /أ (أحمد الثالث ٢٩٢٢/ ٢١) .
٢ الفوات ١ : ١٠٣ والزركشي ١ : ٥٣ ب والصفدي ٧ : ٣١٣ .
٣ الفوات ١ : ١٠٣ والزركشي ١ : ٥٣ ب والصفدي ٧ : ٣١٣ .
٤ الفوات والزركشي : تعاين .
٥ الفوات ١ : ١٠٣ — ١٠٤ والزركشي ١ : ٥٤ والصفدي ٧ : ٣١٣ .

رأيت الشهد لا يحلو فما ظنك بالصبر[1]

— ١٤ —

وقال :

وما سرّ قلبي منذ شطت بك النوى نعيمٌ ولا لهوٌ ولا متصرّفُ
ولا ذقت طعم الماء إلا وجدته سوى ذلك الماء الذي كنت أعرف
ولم أشهد اللذات إلا تكلفاً وأي سرور يقتضيه التكلف[2]

— ١٥ —

وقال :

أحبابنا لو لقيتم في إقامتكم من الصبابة ما لاقيتُ في ظَعَني
لأصبح البحر من أنفاسكم يبساً والبرّ من أدمعي ينشق بالسفن[3]

— ١٦ —

وقال :

تمثلتمُ لي والبلاد[4] بعيدة فخيّلَ لي أن الفؤاد لكم مغنى
وناجاكمُ قلبي على البعد والنوى فأوحشتم لفظاً وآنستم معنى[5]

— ١٧ —

وقال في ملاح أربعة يلقب أحدهم بالسيف :

ملاك بلدتنا بالحسن أربعة بحسنهم في جميع الخلق قد فتكوا

---

١ الصفدي ٧ : ٣١٤ والزركشي ١ : ٥٦ وعيون التواريخ : ١١٦/أ (أحمد الثالث ، ٢١/٢٩٢٢) .
٢ الفوات ١ : ١٠٣ والزركشي ١ : ٥٤ والصفدي ٧ : ٣١٤ .
٣ الفوات ١ : ١٠٣ والزركشي ١ : ٥٤ والصفدي ٧ : ٣١٤ .
٤ الفوات والزركشي : والديار .
٥ الفوات ١ : ١٠٣ والزركشي ١ : ٥٤ والصفدي ٧ : ٣١٤ والنجوم الزاهرة ٧ : ٣٥٥ والمنهل الصافي وإنباء الأمراء لابن طولون ٣٥/أ .

تملكوا مهجَ العشاق وافتتحوا بالسيف قلبي ولولا السيف ماملكوا[1]

— ١٨ —

ألا يا سائراً[2] في فقد عمرٍ يقاسي في السرى حَزْناً وسهلا
قطعتَ نقا المشيب وجزت عنه وما بعد النقا إلا المصلّى[3]

— ١٩ —

وقال :

يا رب إن العبد يخفي عيبه فاستر بحلمك ما بدا من عيبه
ولقد أتاك وما له من شافعٍ لذنوبه فاقبل شفاعةَ شيبه[4]

— ٢٠ —

وقال :

أعدمتني بالجوى يا فاتر المقل فضجَّ وجدي على ما بي من العلل
وملتَ عني إلى الواشي فلا عجب فالغصن ما زال مطبوعاً على الميل
يا واحد الحسن عدني زورةً حلماً وها يدي أن نومي قد جفا مقلي
يا جيرةً بأعالي الخيف من إضم خيبتمُ بجفاكمْ في الهوى أملي
وملتمُ بجميل الصبر عن دنف أجلَ ما يتمنى سرعةُ الأجل
تجري على الربع مذ غبتم مدامعه وما عسى ينفع الباكي على طلل[5]

---

١ الفوات ١ : ١٠٤ والزركشي ١ : ٥٤ والصفدي ٧ : ٣١٤ .
٢ الفوات : سارياً .
٣ الفوات ١ : ١٠٤ والزركشي ١ : ٥٤ .
٤ الفوات ١ : ١٠٦ والزركشي ١ : ٥٤ والنجوم الزاهرة ٧ : ٣٥٥ والمختار من وفيات الأعيان (حاشية ص ١٦٤ من الجزء السادس) والمنهل الصافي وإنباء الأمراء لابن طولون ، ٣٥/أ .
٥ الفوات ١ : ١٠٦ والزركشي ١ : ٥٥ .

وقال :

أيا غادراً خانت مواثيقُ عهده لقد جرت في حكم الغرام على الصبّ
وأقصيته من بعد أنس وصحبة وما هكذا فعلُ الأحبة والصحب[١]
فلله أيــام تقضت حميدة بقربك واللذات في المنزل الرحب
وإذ أنت في عيني ألـذ مـن الكرى وأشهى إلى قلبي من البارد العذب
فلهفي على ذاك الزمان الذي غدت[٢] عليه دموع العين دائمة السكب
ومذ صرت ترضيني بقول تملق وتظهر لي سلماً أشــدّ من الحرب
ثنيت عناني عــن هواك زهــادة وإن كنت في أعلى المراتب من قلبي
لأني رأيت القلب عبدك طائعاً[٣] تعذبه كيف اشتهيت بـلا ذنب
ولم تحفظ الودّ الذي هو بيننا ولم ترعَ أسباب المودة والحبّ
ولا أنت في قيد المحب إذا غدا تقلبه الأشواق جنباً إلى جنب[٤]
ولا أنت ممن يرعوي لمقــالتي فأشفيَ قلبي بالسكينة والعتب
ولا رمت منك القرب إلا جفوتني وأبعدتني حتى أيست من القرب
وأصغيت للواشي وصدّقتَ قوله وضيعت ما بيني وبينك بالكذب
فلم يبق لي والله فيـك إرادة كفاني الذي قاسيتُ فيكَ منَ العجب[٥]
ولا ليَ في حبيك ما عشت رغبة أبى الله أن تسبي فؤاديَ أو تُصبي
ومن ذا الذي يقوى على حمل بعض ما تجرعته بالذل من خلقك الصعب
فلا ترجُ مني بعـد ذا حسنَ صحبة فحسبي سلواً بعض ما قلته حسبي
ولا تعتبني قد قطعتُ مطامعي وخففت حتى في الرسائل والكتبِ[٦]

---

١ الزركشي : بالصحب .
٢ الزركشي : لقد غدت .
٣ الزركشي : عندك ضائعاً .
٤ الزركشي : على جنب .
٥ الزركشي : قاسيته فيك من عجب .
٦ الفوات ١ : ١٠٦ — ١٠٧ والزركشي ١ : ٥٥ ب — ٥٦ وعيون التواريخ : ١١٦ ب (أحمد الثالث ٢٩٢٢/٢١) .

— ٢٢ —

وقال :

أبا معرضاً عني بغير جناية ِ أما تستحي من فرط تيهك والعجب
سلوتك فاصنع ما تشاء فانه محا كثرةُ التقبيح حبّك من قلبي[1]

— ٢٣ —

وقال :

كأنني يوم بان الحيّ عن إضم ٍ والقلبُ من سطوات البين ِ مذعور
ورقاء ظلت لفقد الإلف ساجعةً تبكي عليه اشتياقاً وهو مأسور
يا جيرة الحيّ هل من عودة ٍ فعسى يفيقُ من نَشَوات الشوق[2] مخمور
إذا ظفرتُ من الدنيا بقربكمُ فكلّ ذنب جناه الدهرُ[3] مغفور[4]

— ٢٤ —

وكتب إلى ابن عدلان الموصلي من دمشق إلى مصر لغزاً في سراج :

أيها العالم الذي صار حبراً ممارسا
والذي موضحاته يجتليها عرائسا
أي شيء ترى جميع الورى منه قابسا
ان في السرب نصفه حيثما كان كانسا
ثم صحّفْ تمامه تلق ضوءاً مؤانسا
واحذفن منه ثالثاً تنظرن فيه فارسا
من يصحفه عاكسا يلف في الليل حارسا[5]

---

١ الفوات ١ : ١٠٧ والزركشي ١ : ٥٦ (وهو مكرر أيضاً في الصفحة نفسها) .
٢ ابن طولون : سكرات الوجد .
٣ ابن طولون : الحب .
٤ الصفدي ٧ : ٣١٥ والزركشي ١ : ٥٥ ب (حاشية) ، والثالث والرابع في المنهل الصافي ، وهما في إنباء الأمراء لابن طولون ، ٣٥/أ .
٥ ذيل مرآة الزمان ٢ : ٣٩٣ .

— ٢٥ —

وقال :

وهواك يا سلمى وحرمة ما جرى   بيني وبينك من أكيد وداد
لا حلتُ عن عهد الهوى ولو انني   حاولتُ ذاك لما أطاع فؤادي [1]

— ٢٦ —

وقال :

أي ليل على المحب أطاله   سائق الظعن يوم زمّ جماله
يزجر العيس طاوياً يقطع المهـ   ـمه عسفاً سهوله ورماله
أيها السائق المجدّ ترفق   بالمطايا فقد سئمن الرحاله
وأنخها هنيهة وأرحها   قد براها فرط السرى والكلاله
لا تطلْ سيرها العنيف فقد برّ   ح بالصب في سراها الإطاله
قد تركتم وراءكم حلف وجد   نادباً في محلكم أطلاله
يسأل الربعَ عن ظباء المصلّى   ما على الربع لو أجاب سؤاله
ومحالٌ من المحيل جواب   غير أن الوقوف فيها علاله
هذه سنة المحبين يبكو   ن على كل منزل لا محاله
يا ديار الأحباب لا زالت الأد   مع في ترب ساحتيك مُذاله
وتمشى النسيم وهو عليلٌ   في مغانيك ساحباً أذياله
أين عيش لنا مضى فيك ما أسـ   ـرع عنا ذهابه وزواله
حيث وجه الشباب طلق نضيرٌ   والتصابي غصونه ميّاله
ولنا فيك طيب أوقات أنس   ليتنا في المنام نلقى مثاله
وبأرجاء جوّك الرحب سرب   كلّ عين تراه تهوى جماله
من فتاة بديعة الحسن ترنو   من جفون لحاظها مغتاله
ورخيم الدلال حلو المعاني   تتثنى أعطافه مختاله

---

[1] الزركشي ١ : ٥٦ .

ذو قوام تودّ كل غصون البـان لـو أنها تحـاكي اعتداله
وجهه في الظـلام بـدرُ تمـام وعـذاراه حـوله كالهاله
ظبية تبهـرُ العيـون جمـالاً وغزالٌ تغـار منه الغزاله
يا خليلي إذا أتيت ربى الجـزع وعانيت روضه وظلالـه
قف به ناشداً فؤادي فلي ثمّ فؤاد أخشى عليـه ضلالـه
وبأعلى الكثيب بيت أغض الطـرف عنـه مهـابة وجلاله
كلّ من جئتـه لأسأل عنه أظهر العي غـيرةً وتبـالـه
أنا أدرى بـه ولكن صوناً أتعامى عنـه وأبـدي جهـاله
منزلٌ حقّـهُ علـيّ قـديمٌ في زمان الصبا وعصر البطاله
يا عريب الحمى اعذروني فاني ما تجنبت أرضكم عن ملاله
حاش لله غـير أنيَ أخشى من عدوٍ يسيء فينا المقاله
فتأخرت عنكم قانعاً من طيفكم في المنام يهدي خياله
أتمنى في النوم زور خيـال والأمـاني أطماعهـا قتـالـه
يا أهيلَ النقا وحـق ليالي الـوصل ما صبوتي عليكم ضلاله
ليَ مذ غبتمُ عن العين نارٌ ليس تخبو وأدمـع هطاله
فصلونا إن شئتمُ أو فَصُدّوا لا عدمناكمُ عـلى كلّ حاله [1]

— ٢٧

قدم عز الدين عبد السلام بن أحمد بن غانم المقدسي مرة إلى دمشق ، وبلغ ابن خلكان قدومه فكتب إليه :

لله درّ مبشري بقـدومـه فلقد أتى بغرائب المسموع
لو كان يرضى بالخليع وهبته قلباً تمزق ساعة التوديع [2]

١ الفوات ١ : ١٠٤ – ١٠٦ والزركشي ١ : ٥٤ ب – ٥٥ والصفدي ٧ : ٣١٤ وأورد منها الأبيات ١ – ١٧ . والأبيات ١ ، ٢ ، ٧ ، ٩ ، ٢٧ ، ٣٣ في مرآة الجنان ٤ : ١٩٦ .
٢ عيون التواريخ : ٨٢ وكان جواب ابن غانم المقدسي :
حاشاك يا قاضي القضاة بأن تـرى حكمـاً يخالف سنة التشريع
أصـل القضية أنـني عبـد لهـم والأصل لا ينفك بالتفـريـع
القلب يعصى ، كيـف أملـك رده من بعد ما ملك الغرام جميعي

الدوبيت

— ١ —

هذا الصلف الزائـد في معناه قد حيّرني فلست أدري ما هو
كم يحملُ قلبي من تجنيـك ولا يدري أحـدٌ بذاك إلا الله[١]

— ٢ —

في هامش خدك البديع القـاني أسرار هوىً لكلّ صبّ عان
قد خرَّجها الباري فمـا ألطفها من حاشية بالقلـم الريحاني[٢]

— ٣ —

روحي بك يا معذبي قد شقيت في جنب رضاك في الهوى ما لقيت
لا تعجل بالله عليهـا فعسى أن تدركها برحمة إن بقيت[٣]

— ٤ —

يا سعد عساك تطرق الحيّ عساك قصداً فاذا رأيت من حلّ هناك
قل صبّك ما زال به الوجد إلى أن مات غراماً ، أحسن الله عزاك[٤]

— ٥ —

لاحت سحراً لزائر الخيف بروق فازددت بها شوقاً وما زلت مشوق

---

١ الزركشي : ٥٦ ، والفوات : ١٠٧ .
٢ الصفدي : ٣١٦ الفوات : ١٠٧ الزركشي : ٥٦ .
٣ الصفدي : ٣١٦ وتذكرة النواجي .
٤ الصفدي وتذكرة النواجي والفوات : ١٠٨ والزركشي : ٥٦ .

[...] البارق على الخيف إذا ما أومض إلا واعترى القلب خفوق[1]

— ٦ —

ما شمت على الخيف بروقاً لمعت إلا وحسبتها لقلبي صَدَعَتْ
يا من بعدوا لا تبعثوا طيفكمُ نحوي فجفوني بعدكم ما هجعت[2]

— ٧ —

يا من ليَ من جميلهم عاداتُ بنتمْ عني فبانت اللذات
كم رمت أزوركم وأقضي عمري في خدمتكم فضاقت الأوقات

— ٨ —

من أين لأجفانك هذا الكَحَلُ من أين لأعطافك هذا الكسلُ
من أين لقلبي قدرة الصبر على أخلاقك ، كم هذا الجفا والملل

— ٩ —

الصبّ بكم قد فنيت أدمعه من فرط جوى تضمه أضلعه
لا يطمع في الوصل ، وهيهات ، بلى أدنى خطرات طيفكم تقنعه

— ١٠ —

يا من لهم الجميلُ والإنعامُ بنتمْ فتزايدت بيَ الأسقام
عندي وحياتكم من الشوق لكم ما تعجز أن تشرحه الأقلام

— ١١ —

من لي بغزال كلما قلت خطر حُمّلتُ خطر
يهتز كغصن بانةٍ ماس سحر للناس سحر
ما يشبهه في حسنه غير قمر للعقل قمر
لو زوّدني بقبلةٍ حين سفر زاداً لسفر

---

١ الزركشي : ٥٦ .
٢ القطع من ٦ — ٢٧ وردت في تذكرة النواجي (برلين 8400 Spr. 1196) .

— ١٢ —

قاسوك بغصن البان لما وصفوا لا ذنب لهم لأنهم ما عرفوا
هبْ أنّ له ملاحماً منك بدت من أين لخوط البانِ هذا الهيف

— ١٣ —

مذ أعرض عني جيرتي وانتزحوا لم أُصغ إلى العذال فيما نصحوا
ناشدتك يا عذول دعني وهمُ لا تدخل بيننا عسى نصطلح

— ١٤ —

ما أومض بارق ولا هبّ نسيم إلا وغدا القلب من الوجد يهيم
يا عاذل قد أطلتَ في اللوم فَدَعْ شاني وهمُ فلستَ بالوجد عليم

— ١٥ —

لله ليالٍ سلفتْ بالعلم في أنعم عيشة وأوفى نعم
ما أطيب ما كانت وما أسعدني لو فزت بمثلها ولو في الحلم

— ١٦ —

الصبّ ببينكم كثير العبراتْ من بعدكم قد طلّقَ النومَ بتات
إن طال فراقكم عليه يخشى أن تذهب نفسه عليكم حسرات

— ١٧ —

يا شمس ضحى جبينه وضاح ساعات رضاك كلها أفراح
عشاقك لو فعلت ما شئت بهم ماتوا كمداً وبالهوى ما باحوا

— ١٨ —

ما أطيب ليلة مضت بالسفح والعيشُ بها يَقْصُر عنه شرحي

إذ قلت لها : بوّابنـا أنتِ متى ما غبتِ نخاف من دخول الصبح[1]

— ١٩ —

مالي أرَبٌ سواك مالي أرب يا من حسنت به وطابت حلب
ما الحاجة أن أشرح ما أضمره الله معــذّبي وأنت السبب

— ٢٠ —

بالصحبة يا صاح إذا جزت بمي فاشرح كلفي بها وما تمّ علي
قل ذاك حليف الشوق قد صيره هجرانك شاهداً على صورة حي

— ٢١ —

يا من بفراقهم ظنوني خابت هذي كبدي عليكمُ قد ذابت
طابت بكم الحياة بعدي وصفت لكن حيـاتي بعدكم ما طابت

— ٢٢ —

يا من بمغيبه نأى الصبر وغاب ما ضرّك لو بعثت لي منك خطاب
لا بُلّـغَ قلـبي منك ما يأمله إن كان صفالي بعدك العيش وطاب

— ٢٣ —

قد قال ليَ الخيالُ إذ وافاني هل تقنع أن أغشاك في الأحيان
ما أحسبه يسمحُ بالوصل سُدَىً بل قد حبس الرقاد عن أجفـاني

— ٢٤ —

لا تعتقدوا رحلت عنكم مللا حاشاي ولا اخترت سواكم بدلا
إن راق لعيني أحــدٌ بعدكمُ لا بُلّغَ قلبي من لقاكم أملا

— ٢٥ —

يا مرتحلاً يطوي متونَ الفلوات إن جزت على الحمى فقف بالأثلات

---

١ الوفيات ٣ : ١٦١ .

وابك الدمن الحوالي منهم فعسى ... تروى عرصاتها بصوب العبرات

— ٢٦ —

ألحاظك والجفون أصل الفتن ... يا بدرَ دجىً عن غيره ألْفتني
يا من بدوام هجره أمرضني ... ما آن بأن تنظر في أمرِ ضني

— ٢٧ —

قاسوك ببدر التمّ قوم ظلموا ... لا ذنبَ لهم لأنهم ما علموا
من أين لبدر التم يا ويحهمُ ... جيدٌ وعيونٌ وقوام وفم[1]

— ٢٨ —

أهوى رشأً مهفهف القدّ رشيق ... قد حمل قلبي منه ما ليس يطيق
ما ترحم في هواك يا بدرَ دجى ... من يرحمه كل عدوٍّ وصديق[2]

— ٢٩ —

قومٌ لهمُ عليّ فرضٌ وحقوق ... بانوا فحياتي بعدهم ليس تروق
أحبابي لو أمكنني قصدكمُ ... بادرتُ ولكنْ حادثُ الدهريعوق[3]

— ٣٠ —

يا غصنَ نقا قوامه ميّاد ... أيام رضاك كلها أعياد
ما أكتم حزني عندما تهجرني ... إلا حذراً أن تشمت الحساد[4]

---

١ تذكرة النواجي والنجوم ٧ : ٣٥٥ .
٢ تذكرة النواجي وعيون التواريخ .
٣ عيون التواريخ .
٤ الوفيات ٣ : ٤٨١ .